شبرا – تل أبيب

أحمد خطاب

شبرا تل أبيب / رواية
أحمد خطاب
الطبعة الأولى ، ٢٠١١

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١٠ ش عبد الهادي الطحان ، المرج
موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣
E – mail : **dar_oktob@gawab.com**
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
إسلام جاويش
تدقيق لغوي :
محمد علي
رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٢٨٦٥
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٨٧- ٢

شبرا – تل أبيب

أحمد خطاب

رواية

الطبعة الأولى

٢٠١١



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهـداء

إلى من حملتني جنينًا وطفلاً ، وشاباً ، وكهلاً طيلة حياتي ..

إلى من أعادتني في أحشائها بعد مماتي ..

إلى من أموت فيها بكلّ رضا لتحيا ..

إلى أمّي وأمَ الدنيا ..

إلى وطني ..

إلى حبيبتي .. مصر ..

أشهد أنّكِ أحب بقاع الدنيا إلى قلبي .

ابنك

أحمد عبد الحميد خطاب



الفصل الأول

الرّجــــوع



طيورٌ أسطوريّة مجنّحة مهيبة تحطّ وتقلع .. تتلاشى أمامها ضخامة الرّخ الخرافية .. لكنها ورغم تلك الضخامة واقعيّة على أرض هذا الكوكب المسكين .. صوتها رهيب .. صراخها حاد يصم الآذان .. يتضاءل أمامه صوت الشياطين في وادي النسيان بتلك البقعة البعيدة التي لم يزرها إنسان قط ، ولم يطأها بقدمه .. غزاها بعقله واستعمرها بأفكاره .. يحكي عنها وعن أحوالها وأصواتها التي ما إن يسمعها بني آدم حتى يصموا ، ثمّ يصيبهم الجنون ، ثمّ يموتوا بعد أن تلتهم أرواحهم تلك الشياطين الجائعة النّهمة .

وكر كبير مهيب اتخذته تلك الطيور باختلاف ألوانها ، وأشكالها ، وأحجامها محطًا لها،ولأفراخها .. تفرغ فضلاتها فيه .. تشبع حوصلاتها الملتهبة عنده .. تضمّد جراها وتنظّف نفسها عليه .. حركة دائبة آناء الليل وأطراف النهار بلا كللٍ ، ولا ملل من الحطّ والإقلاع .

جلس مصطفى على مقاعد الانتظار في وكر بن جوريون بالعاصمة الإسرائيلية " تل أبيب " .. بدت عليه علامات الشيب في بعض خصلات بيضاء متداخلة ، مع باقي شعره الأسود النّاعم رغم أنه لم يتجاوز الأربعين من عمره .. رسمت سنين عمره الماضية وما عاشه فيها من أحداث وحوادث بعضًا من الرّتوش على صفحة وجهه ، فأسبغته مظهرًا يوحي بتقدّمه

في السّن أكبر مما هو عليه .. إلا أنّ قوامه لا يـزال ممـشوقًا ، اللهم من بعض الزيادة الدهنية الطفيفة الـتي بـدت عليـه ، وأبرزها "كرشه" الذي أصبح يمثل نتوئًا خارجةً عـن حـدود جسده ، لاسيما وأنه لم يصل للبدانة التي تخفي ذلك الكرش ، فظلّ دخيلًا مختلفًا عن ذلك الجسد الذي أعلن رغبته في جـلاء ذلك الوافد الدّخيل ، وعدم التعاون أو التضافر معه وأبدًا لـن يشكلا معًا كيانًا واحدًا .. لقد كان لافتًا للانتبـاه أنّ جـسد مصطفى أصله النحافة ، وأن كرشة نابتًا بـشكلٍ طفيلـي لا أساس له ولا أصل .

جلست إلى جواره زوجته "لندا" الجميلة صـاحبة العينـان الزرقاتان كزرقة مياه المحيط الهادئ الذي وهبت السماء فوقـه مياهه لونها الأزرق الصّافي الجميل .. ابتسامتها هادئة مـشرقة من فم ما إن ينحني انحناءة الابتسام ، حتى تشرق كلّ شمـوس الكون ولا تعرف للغروب سبيلا .. شلال شـعرها الـذّهبي كحقلٍ من قمح قبيل حصاده يبدأ من أعلى جبهتها الوضّـاءة ضياء النهار في ربيع مزهر وينتهي إلى حدود خصرها المرسـوم انحناءاته بدقّة متناهية .. وولداهما التوأم "حسن وحسين" ابـنيّ السابعة يلهوان أمامهما غدوًا ورواحـا في صـالة الانتظـار بالمطار .

بدت على مصطفى مظاهر التوتّر .. قدماه تهتزّان بشدّة .. بصره زائغٌ لا يعرف للاستقرار سبيلا .. عقد ذراعيـه أمـام

صدره ، ثم حلّهما إلى جواره .. يطلق زفرة من حين لآخر .. نظرت إليه "لندا" مبتسمة ، وأنامل كفها الأيمـــن تغـــوص في شعره حتى تصل إلى منبته ، ثم تخرجها مرّةً أخرى سابحةً بهمـــا على خصلات شعره الناعم .. تارةً ببطن كفّهـــا ، وأخـــرى بظاهر تلك الأنامل البضّة التي تكاد تخلو من العظام في محاولـــةٍ لتهدئته ..

اقتربت منه أكثر ، شعرت بأنفاسه وشـــعر بأنفاســـها .. ارتشفت شفتيه في هدوءٍ عاصف .. نظر إليها كغريقٍ يستنجد بزورق إنقاذ يدور حوله في حلْقة مغلقة ، حتى لا تتركه يغوص في غياهب تلك الدوّامة الدائرة في محيط عقله الهائج مستلاطم الأفكار .. تلاقت النّظرات و لم تخرج الكلمات ..

-" اهدا حبيبي .. كل أشي بيصير منيح ."

-" تفتكري ؟!"

-" أنا معك .. اوعاك تخاف ."

أنهى "مصطفى" هذا الحوار الصامت مع عيني زوجته .. رفع رأسه لأعلى ؛ لتتعلق عيناه بسقف الصّالة الزجـــاجي .. نفـــد بصره إلى بساط السماء المنطرح ، وقد تناثرت عليه نجومٌ غائرة غير متلألئة .

– هي ذات السّماء ، وكذلك النّجوم التي كان يراها في القاهرة في جلساته مع أبيه "راضي عبد المعز" على الكنبة العربي تحت نافذة غرفة نوم والده بالزقاق المتفرّع من حارة كوع النّسناس .

– هو ذات السّقف العلوي الأسود غالبًا ، والأزرق نادرًا .. فيه تلك البقع البيضاء بياضًا باهتًا الذي كان يظلّه في جلسته المسائية مع محيي،وفوزي أمام مقهى "على قد لحافك ".

لم يعرف تلك السّماء مع "داليا" .. لا يتذكر أنه جلس معها يومًا حتى المساء .. فجأة خرجت من باطنه ابتسامة كفقاعة هواء انطلقت من الأعماق ، لكنها لم تطفُ على سطح وجهه بانفراجة على شفتيه عندما تذكر رقدته على ظهره ناظرًا إلى ذات السماء ، وإلى جواره "سنية" (ورك الفرخة) بعد أن فضت بكارة عصمته على سطح مترلها .

وقف "شاؤول" أمامه .. انتزعه من جوار "سنية" .. نظر إليه مبتسمًا ابتسامة تشجيع ومؤازرة .. قام مصطفى من جلسته يتحسّس ملابسه ، وكأنه خشي أن تكون وقفته أمام "شاؤول" بذات عريه التام الذي كان عليه مع "سنية" ..

تصافحا بحرارة ، وتعانقا بدفء .. أخرج "شاؤول" من جيب سترته بطاقة قابضًا عليها بسبابته اليمنى والوسطى كأحد الحواة .. رفعها أمام عينيه ، ثمّ دسّها في جيب قميص

"مصطفى" الذي أخرجها من جيبه ، ونظر فيها ، فإذا بها لأحد المحامين بالقاهرة .. ابتسم له "شاؤول" :

-" بيتهيأ لي هتحتاجها هناك .. أشوف وشّكم بخير ."

قالها - وهو يغادر - خارجًا من الصالة ، وملوّحًا بكفّه الأيمن إشارة الوداع ..

ارتفع صوت الإذاعة الدّاخلية للمطار عبر صوت المذيعة العذب دومًا .. والذي يعطي انطباعًا بأنّ صاحبته حتمًا جميلة المُحيا .. صغيرة السن .. ترتدي قميصًا من الحرير به زرارين على الأقل في الأعلى غير منغلقين وجونلة حدودها عند ركبتيها ، أو أعلى ؛ لتبدي ساقين ملفوفين .. حتى وإن كانت الحقيقة غير ذلك .. حتى وإن كانت الحقيقة وهمًا .. وكان الصوت لعجوزٍ شمطاء .. ترتدي جلبابًا من أوّلها لآخرها .. يخفي لحمًا منكمشًا ، وجلدًا مترهّلًا .. أو كان ذلك الصوت آليًا صناعيًا لا حرارة فيه إلا حرارة الآلة ، ولا تيار فيه إلا تيار الكهرباء .

- "على المسافرين على الرحلة رقم "سبعة وستون" المتّجهة إلى "القاهرة"على خطوط "مصر للطيران" التوجه إلى بابي رقم "خمسة - ستة ".

ما إن فرغت منها بالعبرية حتى أعادتها بالإنكليزية ثمّ بالفرنسية .. قام مصطفى متّجهًا للباب المعلن عنه توًا حاملًا في يده اليمنى حقيبة سفر متوسّطة .. استقرت "لندا" في سيرها إلى جواره بعنقها الملقى على إبطه الأيسر ـ وقد طوقت خصره بذراعها الأيمن ـ ، وأحكمت تطويقها عليه وحملت في يدها اليسرى حقيبة سفر صغيرة .. و"حسن وحسين" لازالا يتقافزان أمامهما في طريقهم جميعًا إلى الطائرة .

ما إن وصلا إلى الباب الزّجاجي الملصق أعلاه رقم "خمسة" حتى فتحت دفتاه يمينًا ويسارًا .. مرقوا من خلاله إلى أنبوب طويل .. طنين الأجهزة المدارة يعلو ، ويسيطر على الأجواء .. قابلتهم في نهاية الأنبوب "مضيفة الطّائرة" بابتسامة معدنيّة لزجة .. تخلو من كافّة المشاعر الإنسانية سواء كانت إيجابية أو حتى سلبية .. كأنّ تلك الابتسامة زيًا ترتديه على وجهها كزي الضيافة على جسدها أثناء ساعات العمل ، وما إن تنتهي حتى تخلعهما وتعود لحالتها الآدمية التي خلقها الله عليها .

الكل جلس في مكانه .. "مصطفى" بجوار النّافذة و"لندا" إلى يساره .. "حسن وحسين" يجلسان أمامهما .. الطائرة من طراز "الإير باص" .. دقائق وتمّ إغلاق أبواب ذلك التابوت المعدني بإحكام .

علا صوت قائد الطائرة بالتعليمات الآلية .. "رقم الرحلة" .. "مستوى الطيران" .. "المسافة" .. "الوقت اللازم لقطعها" .. "موعد الهبوط" .. "درجة الحرارة" .. "درجة الرّطوبة" .. تعليمات ومعلومات لا يبغي قائلها منها إسماع الركاب بقدر ما يكون قد أدّى مهمةً يجب عليه أن يؤدّيها .. من استمع فلنفسه ، ومن لم يستمع فليذهب إلى الجحيم ، ولكن بعد أن يغادر الطائرة .

بدأت الطائرة في الحركة المهدهدة لتصل إلى أول ممر الإقلاع .. ، مع دوران عجلاتها دارت عجلة الذّكريات في عقل "مصطفى" ، وفاضت بشكل متدفّق .. أغرقته في ذلك التابوت المشترك مع غيره من المسافرين .. أصمّت أذنيه عمّا حوله .. وأعمت ناظريه عمّا أمامه .

انطلقت الطّائرة بسرعتها القصوى إلى الأمام على طريق إقلاعها .. انفصلت عجلاتها عن أرض ممر الإقلاع .. تركته في قفزة جوية ؛ لتسبح في محيط الفضاء .. اندفعت تمخر عباب الليل أمامها في طريقها لمستقبلٍ قد كتب بالفعل على أصحابه ، لكنهم لم يقرؤوه بعد .

بذات سرعة انطلاق الطائرة إلى المستقبل ، أو أسرع انطلق "مصطفى" إلى خلفية الماضي وذكرياته فيها ؛ ليصل إلى أيام تخرجه من الجامعة وما واكبها من أحداثٍ أدّت به إلى ما هو

عليه الآن .. انفصل عن حاضره الذي فيه يحيا ، وتـــرك أرض واقعه التي عليها يسير .. تركه في غطسة زمنيـــة ؛ ليـــسبح في محيط ذكريات الماضي التي كانت أسبابًا للمـــستقبل آنـــذاك ، والذي صار حاضرًا يحياه الآن ، ودواة يأخذ منها سن أيامـــه ؛ ليكتب ما خطّه القدر له منذ الأزل ، لكنه لم يقرأه بعد .

الفصل الثاني

مصـــــــر

أشرقت الأرض بنور شمس ربِّها .. أرسلت آشعتها كفوفًا من نور ، وأنامل من ضياء تطرق أبواب الجفون ؛ لتفتح العيون على شهادة ما كتبه القدر على أصحابها ..

- "السلام عليكم ورحمة الله .. السلام عليكم ورحمة الله ."

أنهى "راضي" صلاة الضحى .. قام من جِلسته على تؤدة من أمام سريره في حجرة نومه المتواضعة التي طلى ضوء النّهار جدرانها ، وأسبغها بعبير ندى الصباح الباكر ؛ ليملأ النّفس رضًا وأملًا .. والحياة إشراقًا وتفاؤلًا .

وضع سجادة الصّلاة على طرف سريره الخشبي القديم .. مرقده الذي شهد أحلامه وكوابيسه ، وحملها معه كما حمل تلك المرتبة التي احتملته أعوامًا كثيرة ، وأخذت شكل جسده النحيل على اليسار .. الجانب الأيمن ارتفع قليلًا لقلّة النوم عليه، فهو مكان نوم زوجته "أمّ مصطفى" التي فارقت النوم إلى جواره لرقدةٍ طويلة تنتظره خلالها ؛ ليأنس جوارها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

نظر إلى سورة "ياسين" المعلّقة على الحائط الملاصق لشباك السرير ، تبسّم متذكّرًا زوجته وخليلة عمره - وهي توقظه - أثناء حياتها التي فارقتها إلى حياة البرزخ في انتظار القيامة ؛

ليقوم إلى عمله الذي فارقه إلى حياة المعاش انتظارًا لساعة رحيله هو الآخر – وهي تتمتم – بأولى آيات سورة ياسين :

– "الله يرحمك يا غالية ."

قالها بعد أن تنهّد تهيدة وفاء شهيقها "أمل اللقاء" ، وزفيرها "مرارة الوحدة" .. اتجه إلى الكنبة العربي ذات مسندي الظهر المرتكنان على حائط النّافذة الوحيدة بالحجرة ، والتي يشعّ من خلالها ضوء هذا المصباح الإلهي الذي إذا أضاء أظلمت كافة المصابيح ، ولم يعد لضوئها قيمة أمام ضوئه الباهر .

ارتقى على الكنبة بركبته اليمنى في تألّمٍ واضح من جراء تلك الخشونة التي أصابتها دون أن يتبعها باليسرى ؛ ليصل إلى إفريز النافذة .. أخرج وجهه منها ليغسله بندى الصباح وشذا عبيره النديّ ..

استنشق ما استطاعت رئتيه أن تحتمله وتحويه داخلها رغم إعتلالهما ، وقرّئهما من هذا الكمّ الكثيف من دخان التبغ المحترق الذي يشعله بنار قداحته ؛ ليدخله إليها فيحرقهما بنار المرض بسبب تلك العادة القميئة التي يمارسها "راضي " منذ نعومة أظفاره ، وحتى الآن :

-" اللهمّ صبّحنا وربّحنا ، وبين عبادك ما تفضحنا .. يـــا رب .. نجّح "مصطفى" وخد بإيدّه .. واكتبه عندك في سجل الناجحين الفالحين .. قادر يا كريم . "

أنهى "راضي" دعاءه بعد أن أخرج زفرةً عالية بعــد ذلــك الشهيق العميق .. ألقى بناظريه إلى الزّقاق الضيق الذي يمثّــل "مربع ناقص ضلع" .. زقاق بلا اسم .. لم تسمّه الدولة ، ولم يهتم أحد بتسميته فصار غائبًا على خرائط المــساحة حاضــرًا على أرض الواقع .. أضلعه الثلاث هي : "بيــوتٌ متواضــعةٌ متهالكةٌ متراصّة في نظامٍ عشوائي" .. والضلع الرابــع هــو : "حارة كوع النّسناس الضيقة الطويلة بعــرض حكــر "أبــو دومة" .. تلك المنطقة العشوائية في القاهرة رغم أنها مطلّة على نهر النيل مباشرة .

أطلّ من منزله - وقد غرقت كل البيوت حوله في الشبورة الصباحيّة - .. النوافذ لازالت مغلقة .. الكلّ في سباتٍ عميق بعد أن انتهت أحداث فرح بنت المعلم "حلــي الفرارجــي" { تاجر الدّواجن } وهي التّجارة الظّاهرة ، أوكما يقولــون الغطاء .. أمّا الأساس فهي : "تجارة المخدّرات" .. والتجارتان يعلمهما الجميع .. "أهل الزّقاق" .. "ومباحــث القــسم".. و"الإدارة العامة لمكافحة المخدّرات" .. حتى الــدواجن الــتي

يبيعها المعلم "حلي" كانت تعلم أنّه تاجر مخدّرات !!!!!!!!!!!!!!.. لكن المشكلة كانت دومًا في الإثبات .. وإذا كانت القاعدة تقول : " إنّ البينة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر .." ، فدائمًا كانت الإدارة العامة لمكافحة المخدرات بكلّ فروعها ، وعيونها ، ووسائلها عاجزةً عن إقامة تلك البيّنة عليه !!! .. ودائمًا كان المعلم "حلي" يحلف بأغلظ الأيمان الكاذبة على إنكاره لتلك التجارة !!! .. ولأنّ الإنسان لا يفعل الشر - وهو مُقرّ في نفسه - أنّ ما يقوم به شرًا أو معصية .. كان جواب المعلم "حلي" المقنع - من وجهة نظره - على سؤال "الشيخ عبد السلام" إمام وخطيب الزّاوية القابعة في أوّل الزقاق عن كلّ تلك الأيمان الكاذبة وعقابها عند الله ، رغم علمه اليقيني أنها كاذبة :

-" اسمع يا سيّدنا .. إنت راجل بركة .. وأنا مش هخبي عليك حاجة .. لأني عارف إنّك عارف .. أنا وكلّ المعلمين أصحابي قبل ما بنخرج من بيوتنا كل يوم بنحلف يمين مغلّظ ، وعليه يمين طلاق بالتّلاتة أن كل أيماننا وحلفاناتنا طول اليوم تكون على باطل .. وبكده نبقى إحنا براءة .. وما عليناش أي ذنب .. و لا إيه ؟!! ."

لم يكرّر الشيخ "عبد السّلام" السؤال مرةً أخرى ، واكتفى بما اتضح له من وجهة نظر المعلم "حلي" ورفاقه في أمور الدين، وتطابقه مع حكمة تجار المخدرات القائلة :

- "إن كان حرام .. أدينا بنحرقه .. وإن كان حـــلال .. أدينا بنشربه ..!!!!!"

هذا لأنّ المعلم "حلي" كان ولا يزال يتاجر في "الحـــشيش" فقط .. أما الهيروين فلا .. ومرجعيته في ذلك الأمر كما يقول، ويصرّح :

- "حد الله بينا وبين الهيروين .. ده سم هـــاري .. أمّـــا الحشيش .. يا عيني عليه .. دي تجارة المزاج العالي والصّهللة .. لزوم "واجب في فرح" .. أو "جدعنة في مجلس أنـــس ".. أو "ليلة حلوة" مع " أمّ العيال" ، أو "حق مع المُزّة" !!!!! .

يقبّل باطن يده ، وظاهرها - وهو جالس - أمام محلّه جوار أقفاص الدّجاج وأمامه التعميرة :

- "الحمد لله إن احنا ما مشيناش في الطريـــق البطّـــال .. وبعدنا عن البودرة وشمّها .. وفلوسها وسمّها ."

لذلك اعتاد أهل زقاق "كوع النّسناس" على رؤية الحملات المفاجئة على دكّان المعلم "حلي" ، ومنزله المواجه للزّاويـــة في

أول الزقاق ، والتي كان ينتظرها ويعلم وقت قدومها بـــاليوم والساعة .. حتى صار الأمر طبيعيًا جدًا لأهل الزّقاق في دخول سيارة الشرطة .. التي هي في الأساس سيارة ميكروباص لأحد السائقين المجبرين على خدمة الشرطة .. وأخذهم المعلم "حلي" فيها ، ثمّ رؤيته عائدًا مظفرًا بعد عددٍ من الساعات .. وهـــو يرفع يده إلى السماء بعين ملؤها الرّضاً والثقـــة .. لأن قناعتـــه تامة بأن ما يفعله ليس بحرام أو مخالفًا للشّرع ، أو القانون :

-" أصل ربنا ما يرضاش بالظلم أبدًا .. حسبي الله ونعـــم الوكيل ."

الزقاق لم تنفخ فيه الحياة .. لم يبعث فيه أحد مـــن رقـــدة وفاته بعد إلا عمال الفراشة الذين يهدمون ما قـــاموا بعملـــه وتشييده بجهد جهيد بـــالأمس مـــن كهـــارب ، وفراشـــة ، ومستلزمات فرح يليق بمقام ابنة تاجر مخدرات .. مثلهم مثـــل التي تنقض غزْلها من بعد قوة .!!!

أمام حائط بيت "سنية" {ورك الفرخة} المواجـــه لمـــترل "راضي" وقف "سيّد فولة" خلف عربية الفـــول .. إن شـــئت قلت : "حليلته" ، فأنت صـــادق .. أو "حبيبتـــه" ، فلـــست بكاذب .. أو " عشيقته" ، فلن يتّهمك أحـــد بالمبالغـــة .. أو "رفيقة دربه" ، فأنت محق في كلّ ذلك .. حُب " سيّد" لعربية

الفول التي يقتات منها ويقف خلفها على منصّة خشبية كلّ يوم حتى يجبر لم يكن أحد يستطيع أن يجادل فيه .. دائم تنظيفها والاعتناء بها .. كأن روحًا نفخت فيها ؛ لتحيا معه ، وتعينه على ما يلاقيه من قدره المحتوم .. كثيرًا ما كان يحادثها .. يشتكي إليها .. يعاتبها .. يغضب منها .. يصالحها .. كان يجاهر بفخر أنها تشعر به .. وهو يحسّ بها .. الأكيد في الأمر أنّ : "سيد فولة" كان ، ولازال هو المتعهّد الرسمي لتموين كلّ بيوت الزّقاق وحارة "كوع النّسناس" والحارات ، بل والشوارع المحيطة به بالفول المدمّس الذي يحضره معه كلّ صباح في قدرتين مملوءتين .. لا تمرّ الساعة الثانية عشرة ظهرًا ، وقد بقي بجوفيهما حبّة فولٍ واحدة .!!

أخرجت القدرة الأولى "بخارًا" التحم مع ندى الصباح ، وكأنها مصدر تلك الشبورة عندما أزاح "سيد" الغطاء من على فمها .. أخذ يقلّب بتلك اليد النحاسية المعقوفة التي أدخلها في القدرة ب-"هيامٍ" و"همّةٍ" .. و"نشاطٍ"، "وذمّة" .. كأنّه يداعب محبوبته في تناغمٍ بديع ..

أنهى التقليب بعد أن رضي عنه ، وأخذ يرص زجاجات الزّيت العادي ، والحارّ والليمون والشطة والدقة والطحينة .. نظر إلى الأعلى بدون سبب ، أو مقدّمات ، وكأنّه على موعدٍ سابق مع من ستلاقيه عيناه .. التقت عينه بعيني "راضي" المتابع

لهذا العرض الرّائع ، وعلى وجهه ابتسامة تحيّة كأنّه في أحـــد عروض السيرك الذي لم يذهب إليه طيلة حياته ولا يعرفه :

- "صباحك نادي يا عمّ "راضي ."

قالها "سيد فولة" دون أن يتوقّف عمّـــا يفعلـــه مبتـــسمًا وفخورًا، بعد أن أعطته ابتسامة الإعجاب من "راضي" شيئًا من التشجيع والإطراء .

-" صباحك حليب بالصّلاة على النبي يا "سيد" .. شـــوية لوز من وشّ القدرة ، وكام رغيف ، وبصلتين خُضر عقبال ما أنزّل لك السَبَت ."

أشار "سيد" بسبابته اليمنى تحت عينه اليمنى ، ثمّ اليـــسرى بلهجة إشاريّةٍ فحواها ، وترجمة معناها :

-" من العين دي ، والعين دي ."

هبط "راضي "من على الكنبة الذي امتزج صـــريرها مـــع صرير ركبته العليلة .. إلى يسار الدولاب المقابـــل لـــسريره ، وتحت شمّاعة الملابس العتيقة أخذ السّبَت ومن داخـــل جيـــب قميصه المُعلّق على الشمّاعة التقط جنيهًا وضعه في السّبَت وعاد به إلى الكنبة .. لكنّه في تلك المرّة جلس عليها بعد أن وضـــعه إلى جواره .

أخذ علبة السجائر والقدّاحة من فوق مـــسند الظهـــر في حركةٍ آلية .. سحب سيجارتين وضع إحداهما في الـــسّبت ،

وأشعل الأخرى .. اتكأ على وسادتين وُضـعا في منتـصف الكنبة، بعد أن أخذ نفسًا عميقًا من السيجارة ، ونفثه في جـو الغرفة .. لاذ الدّخان بالفرار منها ، والتحق بندى الصّباح كما فعلت أبخرة قدرة "سيد فولة" .!!

أطلق بصره إلى لا شيء .. أعوامه التي تجاوزت الـستين ، وقد رسمت على وجهه تفاصيل أيّامه ولياليه .. شعره الأبـيض الناعم بلا شعرة سوداء واحدة جعلت رأسه كقطعة من قطـن شاهق البياض .. جسده النّحيل لا يكاد يظهر منه ثمّة تفاصيل داخل ذلك الجلباب الـذي يرتديـه .. إلا أنّ أصـابع يـده والتشقّقات التي بهم ، وبعض الجروح المندملة توضّح وبجـلاء كثرة استخدامهم في شقاء عمله اليدوي بالمصنع الذي كـان يعمل به ، وكان لا يجد الرّاحة إلا فيه .. لكنّه تركه بعـد أن خرج على المعاش إلى راحة لم يجد فيها إلا الشّقاء والتّعاسـة ، وقض المضجع .

أنهى "راضي" سيجارته .. أطفأها في علبة مسلي نباتي قديمة قابعة على الأرض إلى جوار الأريكة ، بها ماء حتى منتصفها .. امتصّ الماء جذوة السيجارة العليلة،وأحالتها إلى بخـار واهـن صعد هو الآخر طيفًا عليلًا ؛ ليجتمع بكلّ تلك الأبخرة في هذا الصباح .. طفا عَقِبَ السّيجارة على سطح الماء إلى جوار بعض

الأعقاب المنتهية كمجموعةٍ من شباب المـــصريين الغرقـــى .. الطافية جثثهم على مياه المتوسط في طريقهم لقدرهم المحتوم .. بعد أن امتصّ الظّلم ، والقهر جذوة شبابهم .

أطلّ من النّافذة .. أنزل السّبَت رويدًا رويدا ، حتى وصـــل أمام "سيد فولة" الذي خرج من خلف عربية الفول بعد أن أعدّ المطلوب .. نظر في السّبَت .. التقط الجنية والـــسّيجارة .. ثم علا بعينيه مبتسمًا ابتسامة رضا :

– " ربنا يراضيك يا عمّ راضي .. اصتباحتك زي الفل يـــا "سيد الكل ."

وضع "سيد " كيس الفول ، وقد سكب عليه كل البهارات والتوابل اللّازمة لإعداده ، وإلى جواره خمـــسة رؤوس بـــصل أخضر بعد أن أتمّ تنظيفهم .. جعل فوقهم خمسة أرغفـــة مـــن الخبز الطّازج الذي تم فرزه بعناية .. رفع "ســـيد" نظـــره لـ- "راضي"، بعد أن أتمّ وضع الطعام في السّبت :

– " خدمة تانية يا عمّ "راضي" ."

– " ربنا يبارك لك يا ابني .. والنبي تدعي لـ- "مـــصطفى "أحسن دي نتيجته النهارده ."

رفع "سيد" يده إلى السّماء بشدة ، كأنه يريد أن يوصـــل دعاءه بيده .. هتف بحرارة :

– "ربنا يطمّنك عليه .. ويرجّعه ليك النّهارده سالم غانم .. مجبور الخاطر إن شاء الله .

عاد "سيد" إلى موقعه خلف عربية الفول ؛ ليكمل عرضه اليوميّ على مسرح الحياة ، أو السيرك .. فليس هناك فرق .. فما الدنيا إلا سيرك كبير .. رفع "راضي" السَّبَت حتى قبض على يده المعقوفة كقوس قزح .. أخذه ودخل به من إفريز النافذة .. نزل من الكنبة ، واتجه إلى باب الغرفة المواجه لها .

خرج من غرفته الضيّقة إلى الصّالة الأقل ضيقًا .. وجد أمامه المائدة المستديرة المتهالكة الرابضة في منتصفها .. تظهر عليها كلّ عمليات التّجميل التي تمت بها ، وما زادتها إلا قبحا .. تحلّق حولها أربعة من المقاعد أجريت عليهم ذات العمليات ، وخلصوا إلى ذات النتيجة كأولاد يتامى التفوا حول أمّهم بعد أن مات عائلهم ، ولا حول ولا قوّة لهم جميعًا .. تخطى بنظره تلك الأرملة بأيتامها الأربع إلى باب غرفة "مصطفى" المغلق ، والمواجه لباب غرفته .. ابتسم عندما رأى سلك الهاتف يخرج من تحت عتبة باب غرفة "مصطفى" .. انحرف يمينًا إلى خوان موضوع تحت نافذة خلفها مسقط النور، أو ما يقولون عليه المنوّر .. فتح النّافذة .. لم يدخل شعاع ضوء .. أو خيط نور .. هبّت ريحًا عطنة لم تفلح كل نسمات الصباح النديّ في تجديدها .. كل ما فعلته أنها خففت من وطأة العطن بها ، فكان هذا هو دليل أن الصّبح قد تنفس .. نزل

بيده اليمنى على المذياع الموضوع على الخوان ، وبحركة آلية اعتادها منذ قرابة الثلاثين عامًا حرّك زرًا فيه .. ملأ صوت الشيخ "محمد رفعت" جنبات المكان بصوته النديّ .. صوته الذي لا يمكن أن تسمعه بغير ما يدخل في نفسك ذات الانشراح والتجلّي الحاصل من عبير الصباح .

أدار ظهره للنّافذة ، فواجه باب الشقة العتيق ذي الضلفتين الواهنتين .. استند بكفّه الأيمن على رأس أحد اليتامى - وهو ينحرف يسارًا - ليدخل إلى المطبخ الذي وصله من ممرّ ضيّق ، بعد أن تجاوز باب الحمّام إلى يساره .

وقف "راضي" يفرغ ما بجوف السّبَت استعدادًا ؛ لتجهيز الإفطار بعد أن ملأ نصف إبريق الشّاي بالماء ، ووضعه على النّار .

- " صباح الخير يا بابا ."

أتاه صوت "مصطفى" من خلفه عند باب المطبخ ، لكنه لم يرتجف أو يفاجأ .. ليس لشجاعة مفرطة .. أو لسماعه خطوات "مصطفى" .. لأنّه لم يسمعه بالفعل .. لكنّه شعر به .. أحسّ بوجوده .. إنه وحيده .. فلذّة كبده .. فهل نخاف أو نفاجأ عندما تدق قلوبنا ؟!!! .. أو تعمل أكبادنا ؟!!!! .. إنّنا لا نسمعها ، ولكن نشعر بها .. الطّبيعي هو وجودها .. الأمان في الشّعور بها .. لكن الخوف والهلع والمفاجأة والفزع ،

عندما تتوقف تلك المُضغ عن حركتها ، فــنعلم أنّ في الأمــر خطب .

رد عليه "راضي" دون أن يلتفت إليه ، أو يناظره .. اكتفى برؤية مضغته التي خرجت منه ، وسارت بأقدامها على الأرض واقفةً تحادثه بعيني مضغته التي بين ضلوعه :

- " صباح الفلّ يا حبيبي .. إيه اللي صحّاك بدري كده .. أنا كنت حجهّز الفطار ، وأصحيك ."

- " أنا صاحي من بدري .. "داليا" صحّتني . "

وهو يلتفت مبتسمًا ودون أن ينظر له ، أو يخرج عن حالــة الاهتمام الجاد بإفراغ كيس الفول ووضع اللّمــسات النّهائيــة عليه ؛ لإتمام عملية تجهيز الإفطار :

- " ما أنا عارف ."

عقد مصطفى حاجبيه مندهــشًا مــن قــول "راضــي" ، ومتعجّبًا من ابتسامته :

- " طب مين اللي قالك ؟!"

وقف "راضي" أمام "مصطفى" بعد أن ترك طبق الفــول .. أخذ منه لقمة .. دسّها في فم وليده .. ضم وجهه بكفيــه .. بكلّ حنان العالم ربت على خدّه الأيسر :

- "سلك التّليفون يا فالح ."

نكّس "مصطفى" رأسه مبتسمًا هو الآخر ابتسامةً لا تخلُ من حرج .. تفاداه "راضي" – وهو خارج – من المطبخ بطبق الفول والخبز .. وضع الطّعام على ظهر الأرملة وسط فرحة أيتامها .. والتفت ل-"مصطفى" الذي لم يتحرّك من مكانه مداعبًا :

– " يا سيدي لو كنت مكسوف من الرّغي طول الليل .. وفواتير التليفون .. وكُعّ يا حاج "راضي" .. بكرة لما تشتغل ومع أول مُرتّب ليك .. تشيل انت يا عمّ الفواتير .. وساعتها هحب من أوّل وجديد .. وأقضيها سهوكة في التليفون .. هتف "مصطفى" :

– "وأنا موافق ."

ابتسم "راضي" ، وهو يشير إلى الحمّام :

– " طيب .. ياللاّ خش اتشطف ، وتعالى كل لك لقمة عشان تلحق تروح الكلّية ."

– " بالذّمة يا ناس .. في أب صبور كده .!!! "

قالها "مصطفى" ، وهو يتقدّم من "راضي" ، وقد اتّسعت ابتسامته .. التقط يده وانحنى مقبّلاً إياها .. وضع "راضي" يده الأخرى على رأس " مصطفى" ، وقد ملأه الحبّ والحنان رضًا عن ولده :

– " ربنا يراضيك يا ابني ، ويرضى عنك .. ويرزقك باللي بتتمناه ."

الفصل الثالث

الحَرَمْ المُبَاح

في رحاب الجامعة ، والتي سمّيت "جامعة" ؛ لأنها تجمع تحت مظلّتها كلّ الكلّيات بكافّة تخصّصاتها ، وبهذا فهي تحوي جميع مناحي العلم والتعلّم .. هذا هو التّفسير الظّاهر كتجارة المعلّم "حلمي" .. لكن هناك تفسيرٌ آخرٌ منطقيٌ ، وعقلي .. وهو : " أنها تجمع كافّة أطياف البشر طلابًا وأساتذة وموظّفين ، وأناسًا ليس لهم صلة بالعملية التعليمة من قريب ، أو بعيد بكلّ أبعادهم النّفسية والعاطفية والسلوكية ، والعقلية ، والاجتماعية والثّقافيّة " .

داخل حرم جامعة "عين شمس" ، والذي لا يوجد به شيئًا محرمًا !!! .. ف-"الحشيش" ، و"البانجو" يتم تدخينه إما خلف قصر "الزّعفران" ، وهو تحفةٌ معماريّةٌ ضخمة تضمّ تحت قبّتها "رئاسة الجامعة" ، أو أمام سيّارةَ هيئة التدريس بكليّة الحقوق في مرآبها الخاصّ بها .

أما التّعارف بين الطلبة والطالبات ، فيتوقف مكانه في الجامعة على نوع ذلك التعارف .. فإن كان تعارفًا بريئًا بين مجموعة من الطلبة والطالبات لا يتعدى الصّداقة والزّمالة ، فمكانهُ إما في إحدى الأُسر بأيّ من كليات حرم الجامعة التي تضم كلية "الحقوق " ، و"العلوم" ، و"الآداب" ، أو كافيتيريا كلية "الحقوق" ؛ لأنها أوسع كافيتريات كليات الجمهورية ، وأرخصها ثمنًا .

أما إن كان التعارف آخذًا منحىً عاطفيًا سقفه : "مسكة ايد" ، أو "نظرة عين" .. فالمكان الأمثل هو : "طريق العشّاق" بالجامعة ، وهو طريقٌ رمليّ مزهرٌ ضيّق يصل من باحة "الحرم الجامعيّ" إلى جوار قصر "الزّعفران ".

لكن إن كان التعارف قد وصل إلى المرحلة الجسديّة ، واللقاء الحميميّ التامّ ورفع السّيقان لدعاء الشيطان .. فليس هناك إلّا المصاطب المنتصبة خلف كلية "العلوم" ، وهو المكان الذي يتوّج فيه كلّ ساقط وساقطة علاقتهما بورقة عرفية يدّعون كذبًا وزورًا أنه "عقد زواجٍ" ، حتى وإن كان ممهراً بالدم .. وليرحم الله الأيّام التي كان علم مصر فيها هو الذي يمهّر بالدم بكلمة "الله أكبر" ، أو "تحيا مصر" ؛ ليرفع على أرض "سيناء" التي حرّرت بعد دفع الضّريبة الغالية .

لم يتبقّ من تلك الأيّام إلا "كوبري بطول أربعين كيلو مترًا" شاخ جسده وتمزّقت أوصاله ووصلاته .. و"يوم أجازة" في الدّولة فقد كلّ معنًى له .. و"مجموعة من الأغاني" لم تعد تذاع إلّا للأبطال الذين لم يعد هناك أبطالٌ سواهم حال فوزهم الجليل ، وتسطيرهم بحبات العرق الغالي أمجادًا تصل إلى عنان السماء ، وتسجّل في صفحات التاريخ بحروفٍ من نور ، وتُحفظ أخيرًا في دولاب الاتّحاد المصريّ لكرة القدم .!!!!!!

أمام المدرّج الكبير بكلية "الحقوق" .. وعلى حائط مبنى "الشئون الإداريّة" صنع الطّلاب سياجًا بشريًا على شكل نصف دائرة أمام كشوف نتيجة "ليسانس الحقوق" المعلّقة على الحائط . خرج من بينهم "مصطفى" ، وقد بدت عليه علامات السّعادة المشوبة بشيءٍ من الحزن والضّيق .

اتّجه إلى "داليا" المنتظرة على مقربةٍ من ذلك التجمّع اللّحمي ، والذي هو الآخر يتم فيه كثير من أفعال التحرّشات – أيضًا – تحت مظلّة الحرم الجامعيّ .. لذلك آثر "مصطفى" أن تظلّ "داليا" بعيدًا حتى يدخل هو مكافحًا مغوارًا ؛ ليخرج لها بالنتيجة !!!.. فهي زميلته ، وحبيبته ، وقُرّة عينه في حاضره الآن، والذي لن يصير ماضيًا في مستقبله الذي خُط له رغم أنه لم يقرأه بعد .. تعرّف عليها ، وطاف بها أرجاء الجامعة ، لكن سقف علاقتهما لم يتعدّ أبدًا طريق العشّاق .

نظرت "داليا" إليه في لهفة ، وهو يقترب منها .. أشارت له بسبّابتها إشارة من علم الخبرً :

– " نجحت ؟ صح ."

دون أن تبدو عليه علامات السّعادة :

– " الحمد لله .. بس جبت جيّد ."

في لهفة الجائع ، بعد أن ارتوى :

- " وأنا ؟ !"

- "مقبول ."

في رغبةٍ من شرب وطعم .. لكنّه يريد أن يتذوق شيئًا فوق حاجته :

- " ومحيي وفوزي ؟"

- " مقبول برضه."

- " ياه .. الحمد لله .. أخيرًا كابوس الدّراسة انزاح مـــن على قلوبنا ."

- " الحمد لله ."

وكأنّها انتبهت أخيرًا إلى أن ردة فعلة ليست بالمتواكبـــة مع الحدث :

- " مالك .. شايفاك مش فرحان ."

نظر إلى السّماء ، وقد شابك أصابعه خلف رأسه .. في مزيج بين اللامبالاة ، والإحباط :

- " أبدًا .. كان ممكن أجيب جيّد جدًا لو زوّدوني درجتين بس ، وكنت أبقى التاني على الدفعة بدل الخامس ."

أمسكت يده وسارت معه .. أوّل مرة هي التي تبادر بمسك يده كأنها تريد أن تبثّه شيئًا من الفرحة التي بداخلها .. حـــتى

وإن كان هذا التقدير قليلًا .. لكنّه وإن كان ضـــعيفًا ، فإنـــه يتوارى خجلًا أمام هذه السّعادة العارمة بانتـــهاء الدراســـة ، وعدم العودة إليها مطلقًا .. جلسا في كافيتيريا "كلّية الآداب" المواجهة للكلّية ، والمجاورة للبوّابة الثانية للجامعة :

- " فهّمني بقى فيه إيه .. اللي مضايقك ؟!!!! "

نظر إليها مبتسمًا في محاولة لعدم تعكير صفو فرحتها في مثل هذا اليوم .. فهو يعلم أنّ نجاحها بأيّ تقدير "فرحة ما بعـــدها فرحة" .. لمجرد انتهاء الدّراسة .. فليس في فكرها عملًـــا ، أو راتبًا .. هي من أسرة ميسورة الحال .. والدها "ضابط مهندس متقاعد" ، يملك محطّة وقود يديرها بعد تقاعده .. صعب المراس ويحنو عليها .. يعامل أسرته بالانضباط العـــسكري ويكـــسره معها .. والدتها من ذوات الأربع اهتمامـــات : "التـــسوّق"، و"النّادي" ،و"الشلّة"، و"جمعيات الرّفق بالحيوان" .. أخوهـــا الوحيد طالب في الكلّية الفنيّة العسكريّة .

هَمّ بالكلام مجيبًا إيّاها .. لكن "فوزي" و"محيي" صديقاهما وجاراه بحارة "كوع النّسناس" دخلا عليهما وجلسا معهما .. عطّلا فاه عن الكلام ، فلم ينطق بكلمة .. نظر إليـــه "محيـــي" بعينيه الواسعتين واللتين يستعملها في الإيقاع بالفتيات ؛ لأنهما بحقٍ جميلتان ، فالقرنية شـــديدة الـــسّواد ، والمقلـــة شـــديدة

البياض .. كما أنهما يجمعان بين البريـــق اللاّمـــع ، والعمـــق الجذاب ، وقد فهم أن في الأمر شيئًا على غير ما يرام ، فـــأراد أن يدخل جوًا من البهجة على الجلسة :

– " بيس يا بيبول .. ما توحّدوه .. إيه الأخبار ؟ شـــوفنوا النتيجة ؟ "

عاجلته "داليا" في فرحة صادقة ، وكأنها لا تعير "مصطفى" بالًا .. كأنها لم تكن معه أصلًا .. كأنها توًا قادمة معهما :

– " الحمد لله كلنا نجحنا .. مـــصطفى جيّـــد ، واحنـــا مقبول ."

كانت تلك من الخصال البارزة في شخصيّة "داليا" ، والـــتي كان ينكرها فيها "مصطفى" .. كان يتحدث معها في الأمـــر الجلل ، وهي تستمع إليه وكل حواسّها معه ، أو هكذا كـــان يعتقد .. ثمّ فجأة يمرّ شخص ، أو يحدث شيء فيـــصعقه أنهـــا تحولت عنه مائة وثمانين درجة ، واتّجهت بكلّ حواسّها لذلك العارض .

اعتدل "فوزي" في جلسته التي كان دومًا يجلـــسها ، بـــل ويشتهر بها .. كان يجلس متزلقًا بمؤخّرتـــه إلى حافّـــة مقعـــد الكرسي ، ويسند برأسه على حافّة ظهره .. كان نحيفًا جاحظ العينين .. سطح رأسه خالٍ من الشّعر تمامًا .. والبـــاقي مـــن

شعره يمثل مربعًا ناقصًا ضلعًا كالزقاق الـــذي يـــسكن فيـــه "مصطفى" .. هوى بيده اليسرى على فخذ "مصطفى" الأيمن ، وأمسك به :

- "مالك يا كئيب..مش عاجبك الجيّد بتاعتك واللا إيه؟!"

وقف أمامهم النّادل بدفتره الصغير والقلم ، مستفسرًا بوقفته عن رغبتهم فيما يطلبون .. هتفت "داليا" :

- " أنا اللّي عزماكوا النّهارده .. أنا هاخد اتنين فرانكفوتر، وواحد عصير برتقال ."

ضحك "محيي" - وهو ينظر - ل-"فوزي" :

- " مدام عزومة يبقى نتبحبح .. أنا عايز ستة كبدة كبير ، ومعاهم سفن كتر ."

نظر إليه "فوزي" باشمئزازٍ من استغلاله للظّـــروف وهـــذا الطلب المبالغ فيه .. ثمّ نظر إلى النّادل بذات النظرة مشيرًا ل-"محيي" :

- "زيّه بالظّبط ، لو سمحت ."

انفجر الجميع في الضّحك .. قطعت "داليـــا" الـــضّحك ، وهي تنظر "لمصطفى" :

- " وانت يا حبيبي .. عايز إيه ؟"

كانت لا تخجل من مناداته "بحبيبي" أمام الجميع .. كانت تخرج منها تلك الكلمة مزيجًا من حنان الأمّ .. وودّ الزوجة .. وهيام الحبيبة .

- " قهوة مظبوط ، لو سمحت ."

قالها "مصطفى" ، وكانت إيذانًا بانصراف النّادل .. نظر إليه "فوزي "ضاحكًا :

- " قهوة في يوم نجاحنا !!!!.. مش بقولك كئيب .. إيه .. فيه إيه .. أبوك اتحرق ."

ابتسم "مصطفى" بمرارةٍ متهكّمًا ، ولم يرد .. بادرته "داليا" :

- " بيقول ممكن تقديره يرتفع لجيد جدًا ، وترتيبه يبقى التاني لو انضاف له درجتين ."

رفع" محيي" كتفيه ، ومط شفته السفلى :

- " طيب وإيه يعني .. تعالى وخش بكرة لوكيل الكلية وقول له .. عرّفه إنك متفوّق في الأربع سنين وما خدتش درجة رأفة واحدة فيهم ..رغم أن أي طالب كويرك من حقه ست درجات رأفة كل سنة ."

نظر إليه "مصطفى" نظرة من يريد أن يصدّقه ، حتى ولو لم يكن هذا الكلام حقيقيًّا :

- " تفتكر .. ؟! .. يعني ممكن يغيروا النتيجة ؟"

أشاح "فوزي" بذراعه اليمنى في اتجاه "مصطفى" ، وكأنه ملّ من هذا الجالس الناجح وبتفوّق ، لكنه لا يريد أن يفرح :

- " يا سيدي اعمل اللّي عليك .. ومش هتخسر حاجة ."

فجأة .. دفن " محيي" وجهه بين كفّيه .. كأنه سمع خبر موت عزيز عليه :

- "لأه .. مش ممكن ."

أول من أنتبه كان فوزي .. فبادره سائلاً :

-" مالك ؟ .. فيه إيه ياد ؟ .. إيه اللي جرى ؟"

حرك "محيي" سبابته اليمنى ، وكفّيه لازالا أمام وجهه :

- " بص وانت تعرف مين اللّي جاي هناك ."

ثمّ أنتفض واقفًا مواجهًا الجلوس ، ومعطيًا ظهره للقادم عليهم :

- " أنا ماشي ."

- " وإيه يعني .. والله لو مشيت تبقى غلطان ."

هتف بها "فوزي" .. وقد أشاح بذراعه اليسرى ..وقد كان دائم الإشاحة بذراعيه كلما انفعل ، أو ثار .. إلا أن "محيي"

كتم انفعال "فوزي" بإشارةٍ من يده تفيد أن يتوقف عن الاسترسال :

– " لأه .. أنا ما بأبلش الواد ده .. سلام .. أشوفكم على القهوة باللّيل .. أنا حاخد سندوتشاتي والكتر وأنا ماشي ."

تخطى "محيي" "مصطفى" و"داليا" مغادرًا دون أن يلتفت خلفه ، وقد علت على وجهه علامات الضّيق والاستياء من ذلك القادم .

بذات الفارق الذي غادر به محيي المكان كان وصول "أحمد السلحدار" إليهم .. شابٌ أبيض البشرة .. شاهق البياض بلا نضارة .. عيناه خضراوتان كحقول برسيم يانعة .. يميل إلى القصر عن الطول ، وإلى البدانة عنها إلى النّحافة .. إلا أنّه لا يمكن وصفه بالقصير أو البدين .. له عرجة في قدمه اليسرى ملفتةٌ للانتباه .. إلا أنّ أكثر ما كان يميّزه كونه من الشخصيّات المستفزّة .. نعم .. فهناك شخصياتٌ قد لا يعرفها الإنسان ، أو يحادثها أو تربطه بها أي علاقة ، إلا أنّه وبمجرد رؤيته لها ينفر منها ولا يرتاح إليها .. بل على العكس .. يجد في كرهها شيئًا يريحه ويركن إليه .. فإذا حدث أمرًا ما يزعجها وينغصّ عليها استشعر سعادةً لهذا الأمر .. وعلى النقيض إذا كان الأمر مفرحًا لها ، ومبهجًا حطّت عليه سحب الضّيق .. كان "أحمد السلحدار" من هذا النوع من البشر .. وقد

اكتملت منظومة "الرّخامة" لدية بوافرٍ من الصّفات القميئة التي ساعد على ترسيخها فيه أشياءٌ ، وأمور لم يكن له دخل بها .. مثل "الغرور" و "التكبّر" و "النّرجسيّة" ، و"تضخّم" الأنـا ، إضافة إلى "التّعامل بمنظورٍ فوقي مع النّاس" .. وذلك لكونه من عائلة ثريّة يضرب الثّراء والعراقة في جذورها .. معظم أفرادها من ذوي المناصب والنّفوذ بالدولة ..

أمّا الحقد والغلّ والسّعي بالوقيعة بين من حوله ، فمرجعهم إلى تلك العاهة بقدمه التي جعلته لا يستطيع أن يسير مستويًا رغم كلّ ما فعله الطبّ معه .. كأنّ القدر أراد أن يجعل لباطنه غير السويّ علامةً في سيره بعدم استواء .

لم يتعامل يومًا مع تلك العاهة على أنها قدرٌ يجب التعايش معه ، والتعامل من خلاله بعد الرّضا به .. تعامل معها على أنها تشويهًا لكمال صورته التي كان يرى أنها لولا تلك العاهة لما كان يضاهيه أحد ، وهو ما أسرَّ به يومًا أحد المقرّبين منه .. والذي أذاعه ذلك المقرّب ؛ لأنّ "أحمد السلحدار" لم يكن يستطيع أن يحتفظ بأيّ شخصٍ مقرب منه لفترة طويلة .. كان نارًا تحرق وتصهر من يدنُ منها، وتلاشيه وتسحقه ؛ ليظلّ هو وحده متّقدًا لا يُرى سواه .. إلا أن " مصطفى" ، و"مصطفى" بالذّات كان بمثابة المياه له .. المياه التي لم يستطع أن يبخّرها بل على العكس كان دومًا يخشى من إطفائه لها :

- " مبروك .. عرفت إنك نجحت ."

قالها "أحمد السلحدار" ، بعد أن توقف أمـــام "مـــصطفى" الجالس بين "داليا" ، و"فوزي" .. خرجت منــه مزيجًــا مــن الامتعاض والانفعال .. لا تدري أيهما يغلب على الآخــر .. ابتسم "مصطفى" ابتسامة لم تتركها المرارة ، لاسيّما وأنه كان يشعر أيضًا مع "أحمد" بشيءٍ من الدّونية رغم تفوقــه الــدّائم عليه .. الفارق الاجتماعي بينهما كان لا يستطيع أن يغفله .. لم يستطع أن يتغافل مستوى شقته في بيت متــهالك قــابع في زقاق يتوارى خجلاً بين تعرّجات حارة "كــوع النّــسناس"، وفيلا "عامر بك السلحدار"(والد أحمــد) القابعــة في تلــك العمارة الشاهقة المنتصبة في شارع "عبّــاس العقــاد بمدينــة نصر" .. كان عزاؤه لنفسه أنّ الناس طبقات .. وبيته المتهالك أحسن حالاً من السكن في حجرة تحت الأرض ، أو مقبرة بين الأموات .. أعطاه ذلك التوازن القدرة على الإبقاء على شعوره هذا سرًا خفيًا لا يظهره لأقرب المقرّبين منه .. حتى "محيــي" ، و"فوزي " الذي ردّ على "أحمد" بامتعاض :

- " إيه .. ودي حاجة مزعلاك ؟!"

- " لا .. أبدًا .. بس .. أصل ."

التقط مصطفى طرف الكلام من "فوزي" ، وكأنّه أعطاه شرارة البدء والشجاعة للحديث :

- " مالك .. بتأتأ ليه .. عايز تقول إيه يا "أحمد" ؟"

ذابت الابتسامة المرسومة على وجه "أحمد" ، وطفا الحقد عليه .. اختفت كما تغور المياه المالحة في الرمال ، ولا يبقى منها أثرًا إلا كلاحة الملح :

- " أنا عايز أعرف حاجة واحدة بس .. إزاي لا كنت بتحضر زيّنا .. ولا بنشوفك كتير ، ومع ذلك تجيب مجموع أكبر مني .!!! "

همَّ "مصطفى" بالرّد عليه ، إلا أنّ "فوزي " أشار له بعدم الكلام ؛ ليكون هو صاحب الردّ :

- " أمر الله يا أخي .. هتحاسبه !!! .. ثم العملية عمليّة ذكاء ، ونباهه مش صم و دح .. ثم انت مزعّل نفسك ليه .. كل واحد بياخد نصيبه ."

حاول أحمد أن يبدى عدم اكتراثه بما سمعه معلقًا :

- " أنا مش زعلان . أنا مستغرب بس ."

انفجر "فوزي" في وجه "أحمد" .. لم يستطع احتمال كلّ هذا الكمّ من الكره ، والضغينة والحقد والسوداوية .. كانت تلك الدفعة من أهمّ ما يميّز "فوزي" .. مالا يعجبه ، أو يقنعه يجهر به دون حسابات أو مجاملات :

- " ولا .. يا ريت تبطّل الحرّ والغل اللي واكل نصّك ده .. ونضّف قلبك للنّاس شويّة ."

تجمّد "أحمد" أمام كلمات "فوزي" الهائجة في قوتها ، والصادقة في انفعالها .. لم يستطع النّطق بكلمة واحدة .. خشي أن تنقلب الكلمات إلى لكمات .. لم يكن سرًا أنّ "أحمد السلحدار" مشهور بكونه جبانًا .. كان يظهر أنه يترفّع عن التّزول إلى منحدر لغة "اللكمات "، و"العراك الجسدي " إلا أنّ الحقيقة ، والتي كان يعلمها الجميع هي : "جبنه الطاغي" .. أعطت كلمات" فوزي" الجرأة ل-"مصطفى" ؛ ليكمل على ما قاله :

- " أمال لو بقيت معيد في الكلية .. أو اشتغلت في النّيابة .. تعمل إيه ؟"

كانت كلمات مصطفى طوق النجاة التي ألقاها ل-"أحمد"؛ لينتشله بها من غدر موج "فوزي" الهادر إلى السّباحة معه في عين هادئة .. أمسك شحمة أذنه اليمنى ، وانحنى قليلاً في اتجاه "مصطفى" متصنّعًا عدم سماع ما قاله :

- " بتقول إيه ؟!"

- "اللي انت سمعته ."

استقام "أحمد" من انحناءته المصطنعة ، وأشار ل-"مصطفى" بسبابته ، وكأن عنده علم اليقين :

- " لا .. لا .. دي بقى أنا أضمن لك إنها مش ممكن تحصل ."

ارتعدت فرائص" مصطفى" عندما سمع تلك الكلمات .. لكنّه حافظ على رباطة جأشه .. على الأقل ظاهريًا :

- " قصدك إيه يعني ؟ "

- " سيب كل حاجة لوقتها .. ياللّا .. سلام ."

قالها "أحمد" وقد أعطى لهم ظهره منصرفًا كبندول ساعة حائط عتيقة بفعل عرجته .. خلّف صمتاً أطبق على أفواه الجالسين .. كسر "فوزي" لجام الصمت ؛ ليخرج ويساعد "مصطفى" ، و"داليا" على الخروج :

- "سبحان الله .. زي ما ربنا خلق الدبّان برخامته ، وتلطيعه ع الوشوش !!!.. خلق في الإنسان نفس الفصيلة .. والواد ده منهم !!!!."

لم يرد أيٌّ منهما عليه .. أحضر "النادل" الطلبات .. أخذ "فوزي" نصيبه من الساندويتشات ، وانصرف مودّعًا على لقاء مع "مصطفى" في المساء .. نظرت" داليا" ل-"مصطفى" طويلاً .. ما أن تلاقت أعينهما حتى ابتسمت قائلة :

- "تصور .. ماما عايزة تربّي كلب اسمه "بندق" مع "تاتي" (القطة السيامي) اللي عندنا في البيت !!."

ابتسم "مصطفى ".. ثمّ ضحك .. ثمّ اشتد ضحكه ؛ وقـــد اهتزت جميع أوصاله من الضّحك ، فظهر كمن أمسك بسلك يسري فيه تيارٌ كهربائي .. هدأ التيّار الكهربائي ، ثمّ انتهى .. تصدّع وجهه بشقوق الهموم التي علته فجأة .. تناول فنجـــان القهوة ، وبدأ في ارتشافها دون أن يردّ ، أو يعلّق على ما قالته "داليا" .

الفصل الرابع

شمسُ الأصيلِ

- ١ -

سار "مصطفى" بخطىً مُجدّة تحت لهيب شمس أغسطس الحارقة .. العرق يترف من مسامّ جلده ويتفصّد من وجهه .. بعد ظهور النتيجة ، وبناء على ما أقنعه به "محيي" ، و"فوزي" أخذ القرار .. ، فكلماهما دارت في رأسه ، ولم تستقرّ .. ما سيطلبه هو عين حقّه ، بلا جدال .. وقف أمام باب وكيل الكلّية .. أخرج منديله القماش من جيب بنطاله ، مسح به على وجهه ، ورقبته .. أعاده مكانه .. نقر نقرتين خفيفتين على الباب .. تمادى إلى مسامعه من خلف الباب كلمة "ادخل" .. فتح الباب ليجد أمامه ذلك الجالس خلف مكتبه .. رجلٌ تخطّى الخمسين بقليل .. تبدو عليه علامات "الوقار"، و"الهدوء" .. ملتحي بلحية منسّقة تشبه لحية "محيي" .. لا يعلم لماذا تذكر اجتماعهم في غرفته أثناء الدّراسة ؟ و"فوزي" يقول ل-"محيي" مداعبًا بعد أن تملّك الجميع نوبة ضحك هستيري :

- "انت مربي دقنك ليه يا حبيبي .. انت مش اسمك برضه "محيي جرجس" .

ثم يعود منفجرًا في الضّحك .. يستجمع "محيي" شتات نفسه المبعثرة بصعوبة بالغة في ظلّ نوبة الضّحك الهستيري التي انتابتهم جميعًا .. ثم يعود ، فيضحك بشدّة ، وقد تقوّس على نفسه ، وهو يصافح "فوزي" قائلاً :

- "ماشي يا عمّ "فوزي عبد الله" .. عشان أبقى أصبت السنة ."

انفجر الجميع في الضّحك .. منح هذا الضّحك الهستيري "مصطفى" ابتسامة ارتسمت على شفتيه ، وطنين هذا الضّحك لا يزال يصمّ أذنيه .. عالج تلك الحالة من الصمم صوت "وكيل الكلية" الذي نفذ إلى أذنه :

- " صباح الخير يا ابني .. اأمر ؟ "

ترك "مصطفى" "محيي" ، و"فوزي" يكملا ضحكاقما ، وأغلق عليهما باب ذاكرته ؛ ليقف أمام من يحادثه :

- " صباح النّور يا افندم .. أنا اسمي "مصطفى راضي عبد المعزّ" .. ناجح في اللّيسانس السنة دي بتقدير عام : "جيّد" .

أشار "وكيل الكلّية" ل- "مصطفى" بالجلوس ، وهو يقول له :

- " كويس .. ألف مبروك ."

جلس مصطفى على استحياء .. كأنّه لا يريد أن يحتل كامل مقعد الكرسي :

- " الله يبارك فيك يا فندم .. بس أنا طمعان ينضاف ليّا درجتين على مجموعي .. عشان يرفعوا تقديري العام ، وكمان ترتيبي على الدّفعة .. وسيادتك عارف إنّها تفرق كتير من جيد لجيد جدًا ."

– " ولا تفرق ولا حاجة .. جيد زي جيد جدًا ."

– " إزاي يا افندم ."

قام وكيل الكلّية من خلف مكتبه .. نظر من خلف النّافذة التي على يمين مكتبه .. كأنّه يستدعي الإجابة من عالمٍ آخر خارج تلك النافذة .. تطلّع "مصطفى" إلى ظهره ، وارتقب ماذا سيقول ؟ .. التفت إليه ليجلس على الكرسي الذي أمامه تاركًا مقعده خلف المكتب شاغرًا ، وكأنه لا يريد أن يقول ما سوف يقوله ، وهو جالس على مقعد الوظيفة :

– " اسمع يا أبني أنا زي والدك .. إنت تقديرك كويس .. احمد ربنا عليه .. وبالمجموع ده ممكن تقدم في النّيابة العامة ، أو النّيابة الإدارية .. أو حتى مجلس الدولة ."

– " بس أنا من حقي .. لو أذنت لي طبعًا .. أتظلّم ، وأطالب برفع درجاتي ."

– "صدقني يا ابني .. لو اتظلّمت من درجاتك .. ما تستبعدش تلاقي نفسك طالع بمادة أو اتنين ."

اندهش "مصطفى " من الكلام الذي سمعه ، وكأنّه لا يعيه :

– "بس ده ظلم ."

التفت الرجل يمينًا ويسارًا رغم أنهما وحدهما في المكتب - والباب مغلق عليهما - ، وكأنّه يؤمن بالمثل القائل : "الحيطان لها ودان" ، ثمّ اقترب أكثر في جلسته ل-"مصطفى" :

- "من الآخر كده .. حد من أساتذة الكلية ، أو الجامعة "والدك"، أو "خالك "، أو" عمك ؟"

رفع "مصطفى" كتفيه .. وهزّ رأسه يمينًا ويسارًا دليلاً على النّفي .. أكمل وكيل الكلّية كلامه ، وهو يربت على ركبة "مصطفى" اليمنى بأنامل يده اليسرى :

- " يبقى اللي أنا بقول لك عليه هو اللّي هيحصل ."

- "ليه ؟!!! .. وفين العدل ؟!!!!! .. ده حرام!!!!!."

- "هو ده عدلهم ."

- " بس درجاتي .لو اترفعت ممكن تخلّيني معيد مستريح ."

سمع وكيل الكلية هذه الكلمات من "مصطفى" ، وانفجر ضاحكًا .. عاد بظهره للخلف ليلامس بظهره ظهر الكرسي الذي يجلس عليه .. خلع نظّارته الطبيّة من أمام عينيه ، ووضعها على سطح مكتبه وهو في غمرة ضحكه .. أحسّ "مصطفى" بشيء من الإحراج من هذا الضحك الذي نال من الجالس أمامه ، وكأن "محيي" ، "وفوزي" استطاعا أن يكسرا باب الذاكرة بعقله ، ويجتمعا مع ذلك الرجل .. سأله بهدوء :

– " ممكن أعرف سيادتك بتضحك ليه ؟!!!"

وهو يمسح دمعتين فرتا من مقلتيه أثناء نوبة الضحك :

– " اللهمّ اجعله خير .. ما أنت لسه قايلها بعضمة لسانك .. لا أبوك ، ولا عمك ، ولا خالك عضو هيئة تدريس .. يبقى ازاي عايز تبقى معيد ؟"

صعقه ما سمع ، وهاله ما وعى .. لم تدركه الكلمات بكثرها ، ولا الألفاظ بمعانيها .. استمرّ بالنظر للجالس أمامه برهة ليست بالقصيرة ، قبل أن ينطق :

– " يعني ...."

– " بالظاااااابط .. اللي وصلك صح .. معدتش ب-"الدرجات" يا ابني .. ولا ب-"التفوق" .. دلوقتي بقت ب-"النسب ، والقرابة" .. اسمع كلامي ، واحمد ربنا على مجموعك ."

عاجله الرجل قبل أن يكمل ؛ ليعلم أن الأمر محسومٌ ومنته .. ليس فيه فصال ؛ ليرتاح ، ويريح .. ويعلم أنّ الحزن على من مات ، وانتهى أمره في تلك الدنيا مآله إلى النّقصان ثمّ النّسيان .. أمّا الحزن على من يرجى شفاء مرضه ، وبراءته من سقمه رغم أنّه لن يبرأ ، فمتجدد ، ولن ينضب كأمواجٍ في بحرٍ من الآلام الدّائمة بلا نهاية .

خرج مصطفى من غرفة وكيل الكلّية ، ومن الكليّة ، ومن الجامعة كلّها .. ابتعد عن هذا الحرم بكل ما يحويه من ظلم مُحرَّم وافتئات عليه ، وعلى حقوقه ، وعلى من هم على شاكلته .. ترك الحرم المباح في اغتصاب الحقوق من غير ذويها، واحتلال المناصب من غير أصحابها .. سار طويلاً بخطوات كثيرة .. هام بلا مقصد ؛ ليجد نفسه أمام مبنى التليفزيون .. ذلك الصّرح الإعلامي الضّخم العتيق .. جلس أمامه إلى جوار النّيل بسبب التعب الذي نال منه ، بعد أن تجاوز نفق الجامعة ، وأنهى شارع "لطفي السيد" بطوله ، ثمّ ارتقى "كوبري أكتوبر"، وظلّ متصلاً معه إلى أن بلغ التحرير وصولاً إلى ذلك النهر العتيق .. شكى بثه وحزنه إليه .. علم أن أوّل أحلامه ضاع منه .. لن يكون معيدًا في الجامعة ، أو مدرّسًا فيها .. جلس عددًا من السّاعات لم يحصها .. أنهت الشمس ساعات عملها في هذا البقعة من الأرض .. ذهبت لتكمل عملها الذي بدأته منذ الأزل في الجانب الآخر من الأرض .. استلم منها القمر ورديته الليلية .. فقام "مصطفى" هو الآخر إلى مستقرّه ومحلّه .

***

- ٢ -

دخل "مصطفى" الحارة واضعًا كفّيه في جيبي بنطاله .. كان ظلام اللّيل قد سبقه ، ونصب خيمته الدهماء على الأرجـــاء .. بعض المصابيح المتهالكة هنا وهناك المعلّقة عند مداخل البيوت بالحارة تحاول جاهدةً أن تبدّد شيئًا من ظلمة اللّيل الثقيلـــة .. رفع رأسه بحركة آليّة عند مدخل الحارة ؛ لتقع عينـــاه علـــى اللّوحة التي كتبٌ عليها { حارة كوع النّسناس } .. تفجّـــر الضحك بداخله وشيئًا فشيئًا خرج من باطنه ؛ ليرســـم علـــى وجهه ابتسامة غير سعيدة :

- " اشمعنى يعني كوع النّسناس بالذات ؟ ! "

سؤال طرح نفسه بإلحاحٍ عليه .. والغريب أنّه انشغل به ، وبالإجابة عليه .. فلماذا كوع النّسناس ؟! ولماذا لم تسمّ الحارة بالنّسناس مباشرةً ؟!!! ، ولماذا ارتضت بجزءٍ منه فقط ؟!!! .. وما الغرض من تفصيلة الكوع ؟!! وهل لها أهمية ؟!!! .. ولماذا لم تكن كوع القرد ، أو رِجل الشامبانزي ؟!!! .. ما السّر في النّسناس ، وكوعه ؟!!! .. أخرجه من تقافز تلك الأفكـــار في جبلاية عقله قبضة كفّ كبير .. خُفّ بـــشري علـــى زنـــده الأيمن :

- " لازم تشرب معايا شربات نجاحك ."

قالها المعلّم "حلي" وهو يجذب " مصطفى" ؛ ليجلس معه أمام محلّه وحول دجاجه .. هذا المحل الذي أخذه بالقوّة الجبرية، وسياسة الأمر الواقع .. بين عشيّة وضحاها .. اقتحم المحل واحتله من الستّ "أمّ رامي" صاحبته ومالكته .. معها "عقد" .. صار معه "عقد" .. تدّعي "ملكيّة المحل" .. أصبح يدّعي "ملكيّة المحل" .. هي استوطنت "خارج المحلّ".. هو "احتل المحلّ".. ما إن وصل الأمر للقضاء حتى تنفّس المعلّم "حلي" الصّعداء ، وارتاح باله .. تذكّر ، وعمل بالمثل القائل : "موت يا حمار" .. ماتت "أمّ رامي" منذ قرابة السبع سنوات ، ولازالت شقيقتها تكمل الدّوران في الساقية .!!!

كان ضمير المعلّم "حلي" من النّوع المدمن .. شديد الإدمان ولم تفلح معه أيُّ محاولة للاستشفاء .. دومًا في حالة خدر شبه كاملة .. لقد عرض على "أمّ رامي" مبلغًا من المال ، لكنّها رفضت .. إذن فقد قام بالواجب الذي عليه .. لا يهمّ بعد ذلك .. هذا المال زهيدًا كان أو كبيرًا .. يمثّل قيمة المحل ، أم ثمنًا بخسًا ، وغبنًا فاحشًا .. لا يهمّ .. كان شيطانه القائم على عملية التخدير يوسوّس له بأنّه مادام قد عرض المال فقد انتهى الأمر .. وليذهب الجميع إلى الجحيم .. أو ليبقوا في الدرك الأسفل من قاعات المحاكم ودهاليزها .. لا فرق .

حاول معه "مصطفى" بشتّى وسائل الإقناع ؛ ليتملص من رفقته ، لكنها باءت جميعها بالفشل .. لا بأس .. وجدها فرصةً ؛ ليفرج عن تلك الأسئلة التي تتقافز داخله .. بادره قائلاً :

– " همّا ليه سمّوا الحارة دي ب–"كوع التّسناس" ؟!!! واشمعنى كوع التّسناس ؟"

ألقاها بتلقائيّة ، وعفويّة على المعلم "حلي" الذي نظر نظرةً لا تتماشى مع سؤاله .. نظرته له كانت توافق سؤالاً عن مقاس الملابس الداخلية لزوجته "أمّ حنفي"!! .. لم يعلم "مصطفى" ما الخطأ الذي ارتكبه .. تحجّر ريقه في بلعومه .. المعلم "حلي" لا يؤمن بوائقه .. لحظات فارقة من الممكن أن يخلع فيها ريش الدجاج ؛ ليظهر عباءة شيطان المخدّرات بكلّ ما تحويها من لعنات .. ابتسم متهكّمًا مما سمعه ، وهو يسحب نفسًا من الشيشة التي أمامه :

– "إيه يا أستاذ .. ده أنا بقول عليك مفتّح ومتنوّر .. واشمعنى فيه ناس اسمهم "الحمار" ، و"البغل" ، و"الجحش"، و"الخرتيت "، و"العويل ."

ثمّ اقترب منه ، وكأنه يريد أن يسرّه بخلاصة تجربته في الحياة، والتي لا تقدّر بثمن ، ولا يريد أن يبوح لغيره بها :

– "لو العمليّة بالأسامي .. كانت حاجات كتير مايلة اتعدلت .. وحاجات أكتر ميتة صحيت .. الدنيا بتاعتنا دي .. لازم تعيشها من غير ما تسأل عشان ترتاح .. اللّي تلاقيه ، وتفهمه ، تتعامل معاه .. واللّي ما تفهموش تعمل انك فاهمه برضة ، وما تسألش عليه .!!"

بلل كلام المعلم "حلمي" ريقه أكثر من زجاجة المياه الغازية التي ألقاها في جوفه .. كانت النتيجة الطبيعيّة لذلك الإلقاء هو : "التجشؤ" .. أغلق فمه حتى لا يصدر صوتًا .. نوع من زيف التمدّن الاجتماعي .. لكن رائحة الأمعاء ، وما داخل البطن من حقيقة مخفية على ما بداخل الأمعاء تخرج من خلال الأنف، وتصل لمن يجالس المتجشئ ، حتى وإن كتم تجشأه .

علم أن كلّ ما في الأمر هو اختلاف في أيدلوجيات التفكير بينه ، وبين ما يعتقده المعلم "حلمي" .. والوصول لهذه النقطة ممتاز ، ويرضي جميع الأطراف .. لأن رأي المعلم "حلمي" هو الذي على صواب .. أو هكذا يجب أن يكون .. لأنه الأكبر سناً ، والأكثر خبرةً ، والأقوى نفوذاً، والأغنى مالاً ، والأشدّ سطوة .. إذن المعلم "حلمي" دائمًا على حق .

استأذنه لموعد مع صديقيه .. لم يكن كاذبًا ف-"محيي" ، و"فوزي" دائمي الجلوس على مقهى "على قد لحافك" في ذلك

التوقيت .. قام من جلسته متوجّهاً صوب ذلك المقهى .. لم تكن مقهى بالمعنى المعروف .. فهي وسط ما بين المقهى المتعارف عليها بمقاعدها ، ومناضدها ، واتّساعها ، وشكلها المعلوم إذا ما ذكرت كلمة "مقهى بلدي" .. وبين نصبة "شاي جوار" – أي حائط – .. كانت عبارة عن حجرة منتزعة أيضًا من بيت .. بها كلّ مستلزمات شرب الدّخان ، والشّيشة ، وإعداد المشروبات ، ولكن لأصحاب المحال والورش المجاورة .. ذلك أنه لم يكن بها سوى منضدة واحدة وضعت في الحارة .. كان "محيي" ، و"فوزي" جالسان عليها عندما قدم عليهما "مصطفى" ، وجلس وهو يخرج زفيراً حاراً بشكل استرعى انتباههما .. بادره "محيي" متسائلاً :

– "مالك .. بتنفخ كده ليه ؟"

وهو سارح في ملكوته الخاص .. رافعًا رأسه إلى السماء الحالكة بنجومها المتواضعة ، وقد شابك أصابع كفّيه خلف رأسه .. ودون أن ينظر إليهما :

– "موضوع التقدير ، والتدريس في الجامعة .. خلاص فنيتو .. بمبة ."

نظر إليهما ، وكأنّه استلهم سؤاله القادم من طيف خفي أملاه عليه :

- "شوروا عليّا .. دلوقتي أسحب ملف النّيابة .. والّلا لأ .. ويا دار ما دخلك شر ؟"

هتف "محيي" بدون تردّد .. وكان دائم الاندفاع .. لا يحسب لأقواله ، أو أفعاله أي حساب .. كان كل ما يفكر فيه، ويحسب له ألف حساب ، ويخطّط له بدقّة متناهية : كيف يوقع بالفتيات في شباكه؟..كل واحدة على قدر طاقة تنازلها ، وعطائها ، وانحرافها .

- " تسحبه طبعًا .. وبدون تردّد ."

نظر إليه "مصطفى" ، وقد رفع حاجبيه ، وعضّ على شفته السفلى .. لم يردّ عليه .. تحول بنظره إلى "فوزي" .. سأله بعينيه ذات السؤال .. اعتدل "فوزي " من جلسته المترلقة ، وقال له - وهو يطفئ سيجارته - :

- " بص يا "درش" .. أنا شايف : إنّ النيابة والوظايف العليوي دي مش للي زيّنا ...."

قاطعه "محيي" :

- " ليه بقى . إن شاء الله ؟!!"

رفع "فوزي" ذراعه ، وأشاح بها ، وكأنّه يخاطب قومًا سُذّج :

– "انتوا مش عايشين في الدنيا واللا إيه .. يا ابني ما فيش حد بيدخل النّيابة العامة ، وهو ساكن في حتة اسمها : "حكر أبو دومة" .. وجيرانه : "سيد لالا" .. و"حمدي طالوش" .. و"سنية"(ورك الفرخة) .

ردّ عليه "مصطفى" بلغة المقتنع بما يسمع .. لكنّه لازال لديه قدرة ، ولو واهنة على الدّفاع في قضيةٍ خاسرة ، وحكمها معلومٌ سلفًا :

– " وده ذنبنا ؟ .. احنا طلعنا لاقينا نفسنا هنا .. واتعلمنا وكبرنا ، وبقى معانا شهادة ."

يخرج "فوزي" سيجارتين من علبة الكليوباترا التي أخرجها من جيب قميصه العلوي .. يعطي " محيي" واحدة ، ويلتقم الأخرى .. يشعل "محيي" عود ثقاب ، يستنشق "فوزي " من خلال سيجارته نار "محيي" .. "مصطفى" لم يكن مدخّنًا لأيّ نوعٍ من أنواع الدّخان .. لم يكن يعلم أن ما خطّه له القدر في مستقبله الذي لم يقرأ صفحاته بعد سيجعله مدخنًا شرهًا .. سحب "فوزي " نفسًا عميقًا ، ثمّ أخرجه دخانًا في الهواء وهو ينظر للسّقف المظلم إلا من بعض البقع المنيرة :

– " ولا ذنبهم همّا كمان .. همّا طلعوا لاقوا نفسهم هناك .. وبرده اتعلموا وكبروا ، وبقى معاهم شهادات .. يبقى

المكان بتاعنا ده ممكن ياخدوا منه مجرمين .. متطرّفين .. إنما أعضاء نيابة ، ورجال دولة ما اظنش .!!!!!"

أشاح "مصطفى" بنظرة إلى الحارة :

- "إنت مُحبِط ."

مبتسمًا ابتسامة تقطر منها مرارة الواقع الأليم :

- " أنا واقعي ."

استشعر "فوزي" قسوة صراحته على "مصطفى"، لاسيّما وأنّه و"محيي" ليس لهما من أمر النّيابة ، أو تلك الوظائف شيئًا؛ لقلّة تقديرهم ، أو لعدم رغبتهم .. نظر إلى "مصطفى" .. ظلّ ثابتاً بنظره عليه حتى تلاقت نظراتهم .. ابتسم ابتسامةً تفتح لصديقه باب الأمل .. ربت على ركبته :

- " ومع ذلك يا سيدي روح وقدّم .. مش حتخسر حاجة .. ربك خلّاف الظّنون ."

- " أمال انت ناوي تعمل إيه ؟"

- "أنا نزلت في مكتب الأستاذ سيد دقدق المحامي ، لغاية ما اشوف لي حتة كويسة أشبط فيها ."

التقط "محيي" طرف الحديث مداعبًا إيّاهما ، وهو يلتهم ما تبقّى من السّيجارة..كانت له طريقة في شرب السّجائر مختلفة .. كأنه يغتصبها !! :

- " أنا بقى لا رحت ، ولا جيت .. أوّل مـــا خلّـــصت الامتحانات ، وقبل النتيجة ما تظهر .. أبويا سلّمني محل البقالة بتاعنا ، وقالي : " ده مشروعك يا حلـــو .. ديـــره وكبّـــره بمعرفتك !." "

وقف "مصطفى" إيذانًا بالانصراف ، ولازال شابكًا أصابعه خلف رأسه :

- " يعني انتوا شايفين إنّي أسحب الملف ."

ردّ "محيي" :

- " توكّل على الله .."

وأعقبه "فوزي" :

- " ربنا خلّاف الظّنون ."

***

- ٣ -

فتح "مصطفى" باب الشّقة .. دخل وأغلق البـــاب خلفـــه بهدوء .. ألقى بنفسه على أحد اليتامى الأربعة المتحلّقين حول أمّهم المتهالكة القابعة قرب باب الشقة .. علت على وجهـــه علامات الانكسار والإحباط .. أخذه التفكير الهادئ وهـــدوء الحزن الحقيقي .. العميق بدون انفعـــال ســـطحيّ .. وقـــف "راضي" على عتبة حجرته ، ولم يتخطاها ، وفي يده مـــسبحته – وهو يتمتم بأدعية ختام الصلاة – .. تلاقـــت عيناهمـــا .. ابتسم مصطفى ابتسامةً تحويها مرارة الهزيمة .. رد عليه "راضي" بابتسامة يقطر منها عذوبة التشجيع وحلاوة الصبر .

خبرته في الحياة أعلمته أن ابنه في ظلّ حالهم الذي يحيونـــه ليس ممن رآهم يحتلّون المناصب الجامعية معيدًا كان ، أو مدرّسًا و أستاذًا ، أو غيرها .... من المناصب العليـــا في الدولـــة كالقضاء ، أو الخارجية .. لكنّه الأمل الذي ننساق خلفـــه .. ربّما نصادف ولو مرة تكذيبًا لظننا الصادق دومًا .. قد ينجح أملنا الضعيف ولو مرة أمام حقيقة الواقع المُرّة .. تلك الصخرة القوية ، والقاسية في تحطيم أحلامنـــا البـــسيطة ، وســـحقها وتذريتها في ريح المحسوبية العاتية ، والنّظام الطبقيّ المسيطر .. أشار بيده التي تحمل المسبحة ، وكأنه لا يعلم من الأمر شيئا :

– " مالك كده .. شايل الدنيا عقدة على دماغك ."

زفر "مصطفى" زفرة هوى بعدها بقبضة يده اليسرى على ظهر الأرملة التي جلس على أحد أيتامها :

– " أبدًا .. رفضوا يدّولي الدرجتين .. قالوا لي : "احمد ربّنا على الدرجات اللي إنت خدها أحسن ما تتسحب منّك .. وانسى موضوع التدريس في الجامعة ."

تخطّى "راضي" عتبة الحجرة متّجهًا إلى "مصطفى" .. جلس أمام فلذّة كبده ، وأراح ذراعيه على ظهر الأرملة التي ما نقضت وضوءه أبدا :

– " معلهش يا ابني .. كلّ عقدة ولها عند الكريم ألف حلّ .. شوف إنت جاي بتقول إيه .. و النهارده عمّك عطوة النجار لما عرف إنّك خلّصت وجبت تقدير عالي يسمح لك بالتقديم في النّيابة قال لي إيه ؟.

– "قال لك إيه ؟"

– "قال لي : "خليه يسحب الملف ، وربنا يقدّم اللّي فيه الخير ."

اعتدل "مصطفى" في جلسته ، وكأنّ ما سمعه ضخّ دماء الأمل من جديد في شرايين واقعه اليائس .. أراد إدخاله حيز التصديق في عقله :

- " مش فاهم !! إزاي يعني ؟"

وهو يبتسم ابتسامةً ملؤها الإشفاق على ولده الذي أضاء وجهه بإشراق شمس التفاؤل ؛ لقلّة خبرته في معترك الحياة القاسي :

- "ما أنا قلت له كده برضه .. قال لي سيبها إنت بس لله .. وخليه يسحب الملف ."

- " تفتكر ممكن يعمل حاجة ."

- " يا ابني العبد في التفكير ، والرّب في التدبير .. قوم يا حبيبي كُل لك لقمة .. ولما تخلّص حصّلني على الأوضة .. أنا محضّر لك مفاجأة ."

قالها "راضي" ، وهو قائم من جلسته متّجهًا إلى غرفته .. نظر "مصطفى" إلى أبيه حتّى توارى عنه بحجاب الباب .. ما هي تلك المفاجأة .. لم يدم في باحة الانتظار .. قام مسرعًا خلف أبيه .. دخل عيه في حجرته ، وهو جالس على السّرير يتصفّح الجريدة .. وقف "مصطفى" عند طرف السّرير .. مترددًا .. تابع "راضي" ما كان يقرؤه مع علمه بوجود ولده .. ابتسم وهو ينظر له :

- "ما كلتش ليه ؟"

- "ماليش نفس ."

- "خلاص خش نام .. ولّا إنت عايز حاجة ؟"

ألجمته الدهشة .. لم يعرف هل ما سمعه حقيقيٌّ ، أم أنه لم يستوعب ما وصل لأذنيه .. علت ضحكات أبيه من علامات الدّهشة والحيرة التي تراقصت على ملامحه .. دسّ يده تحت وسادته .. أخرج خمس ورقات من فئة المائة جنية .. ناولهم لـ"مصطفى" قائلاً :

- " خد الخمسميت جنيه دول ، هات ملف النيابة ولوازمه .. وبالباقي اشتري لك بدلة حلوة كده تليق بمقام سعادة وكيل النّيابة العظيم ."

نظر "مصطفى" إلى "راضي" تارة ، وإلى النّقود تارةً أخرى .. انفرجت أساريره وانقلبت علامات الاندهاش إلى سعادة :

- " بس ده كتير عليك ."

- " يا ابني .أنا ماليش غيرك في الدنيا دي كلّها .. وربّنا اللّي يعلم .. لو بعت نفسي عشان أشوفك في الوظيفة اللّي تتمناها .. أبيعها ، وأبقى أنا الكسبان ."

نظر "مصطفى" لـ"راضي" ، وقد أحسّ أنّه لا يزال عبئًا عليه .. انحنى – وهو يأخذ النّقود – ، وقبّل يده .. شعر "راضي" بإحساس "مصطفى" .. أقام رأسه محاولاً تغيّير الحالة :

- " اسمع يا واد انت .. طول ما فيّا نفس .. اوعى تحمـــل للدّنيا دي هم .. فاهم .. يالّلا يا حبيبي خش نام .. وســـيبني أكمّل الجرنال ."

قالها "راضي" ، وقد همّ بنشر صـــفحات الجريـــدة أمـــام وجهه .. خرج "مصطفى" من الحجرة .. جرت عينا "راضي" على السّطور في حركة آليّةٍ دون فهمٍ ، أو استيعاب .. طواها في حجره ، وقد علت علامات الحزن على وجهه .. غالب ما تفجّر داخله ، وأظهر علاماته على صفحة قسماته .. كأنّه أراد أن يقنع نفسه بالمستحيل :

- "وليه لأ .. ربّنا خلّاف الظّنون .

الفصل الخامس

ليلٌ طويل



نام "مصطفى" طويلاً .. تجرّع كأس النّوم دون أن يستسيغه .. نام لكنّه نوم اليقظان .. نام بلا أحلام ، أو حتى كوابيس .. نام ولم يغب عن الوعي .. استقر في منطقة "الغفوة"، أو "النّعاس" .. أحال حجرته لمقبرةٍ يفوح منها رائحة النّوم .. جفونه مغلقة .. جسده ساكن .. عقله يقظ .. إدراكه معلّق بين الواقع والخيال .

مرّت عليه مشاهد ما قبل مرحلة الدفن النّومي التي يحياها الآن .. وقوفه في صفٍّ طويلٍ جدًا ، ليسحب ملف النّيابة العامّة .. الكل يتدافع للوصول لنافذة بيع الملفات القابعة في "بدروم" دار القضاء العالي .. فطر العفن ممتزج برطوبة المكان مع رائحة الورق المتهالك المطلّ من الملفات المحبوس فيها كالسجين الذي تعلّق بقضبان زنزانته ، عساه يشتم رائحة الهواء المتجدّد .. وما به من نسمات الحرّية ، لكن هيهات .. تذكّر أغنية "سيّد درويش" .. :

- " عشان ما نعلا ونعلا ونعلا .. لازم نتطاطي نتطاطي نتطاطي ."

أخيرًا يصل إلى النّافذة .. وقد انحنى بشدّة ؛ ليسمع صوت القابع خلفها :

- "مية وعشرة ."

- "ليه ؟ الملف تمنه مية بس ."

- "يا سيادة المستشار : لا ميّة ، ولا ألف حتّى كتير على معاليك .. وكل المستشارين زمايل سعادتك بياخدوا الملف بنفس السعر .. وكل سنة وسيادتك بخير ."

اخترق نظره النّافذة ليستقر على وجه "أحمد السلحدار" الجالس داخل المكتب وأمامه فنجان قهوة .. نقد الموظف ما طلب سريعًا ، وأخذ الملف سريعًا ، واختفى قبل أن يراه الجالس مع فنجان قهوته .

تقلّب في لحد سريره .. تهادى إلى فتحتي أنفه ومنها إلى مراكز الإدارك في مخّه رائحة قهوة تطهى .. قوة الرائحة جعلته يتأكّد أنها خارجة من مطبخ الست "أمّ سميرة" المقابل لنافذة حجرته .. أكيد "سميرة" تصنع القهوة لخطيبها "محسن" .. ليس في هذه الشّقة من يتناول البن .. لم تخرج رائحته النّفاذة إلا بعد خطبة "سميرة" .. علم أنّ "محسن" أو "سونة" كما كانت تناديه "سميرة" يحبّ أن يعدل مزاجه بفنجان قهوة بعدما يقضي غرضه منها ، وهما جالسان في غرفة الضيوف - والباب مفتوح - وكلّ أفراد أسرتها غاديًا ورائحًا عليهما .. لكن "محسن" كان محترفاً .. فهو سائق ميكروباص محنّك .. يعلم كيف يتعامل مع الكلاكسات ! ، وكيف يمسك بعجلة القيادة ، ويقبض عليها بأنامله المحترفة ، ومتى يضغط على دوّاسة البنزين .. كل هذا أخبرته "سميرة" لإحدى صديقاتها ، وهما يطهيان المياه مع

السّكر واللّيمون ، أو ما يطلقون عليه الحلاوة التي يستخدمنها لإزالة الشّعر من على أجسادهنّ .. كان يبتسم عندما يشم تلك الوصفة .

آه لو تعلم النّساء أنها وصفة من الجن أعدّوها خصيصاً لـ" بلقيس " (ملكة سبأ) قبيل زفافها على سيدنا "سليمان" – عليه السّلام – .. فقد كانت خليطاً من الجنّ والإنس .. أباها كان من الإنس وأمّها كانت من الجنّ .. وكانت لهذه العلّة مشعرة جداً .. احتار أطباء الملك "سليمان" في كيفية إزالة هذا الشعر، فقام نفرٌ من الجنّ بإعداد هذه الوصفة التي انتزعت الشعر من جذوره .. هديّةٌ ظلّت باقية إلى يومنا هذا من الجنّ الصالح لإخوانه من بني آدم .. لم تكن الرائحة فقط هي التي تصل ، وبقوة ابن تلك المنازل المتلاصقة بحميمية العشوائيّة .. ولكن الكلام والأصوات .. حتى الأنفاس في مثل تلك البيوت المتقاربة تصل وبوضوح لدرجة إمكانية التفرقة بين أنفاس المداعبة السّريعة ، وأنفاس الذّروة اللّاهثة مع آهات الطّعن اللذيذ ، وأنفاس ما بعد القذف الهادئة .. ثمّ أنفاس النّوم الثّقيل وسيطرة صوت "الشخير" .. كان يتخيّل ويعيش مع تلك اللّحظات مطلاً من نافذة مخيلته .. وغالبًا ما كان ينتهي الأمر ببلل في سرواله ، إما يقظاً مستمنياً أو نائماً محتلماً .

خفّت رائحة القهوة دليلاً على أنّ "سميرة" خرجت بالفنجان من المطبخ ، وبدأت تيّارات الهواء تخفّف من حدة

نفاذ الرائحة ،كما كانت تفعل نسمات الهواء بفنجان قهوته الموضوع أمامه على المضدة بذلك الكازينو القابع جوار نهر النيل ، وأمامه "داليا" ناظرة للملف الرّاقد على جنبه متسائلةً :

- " إيه موضوع الملف ده ؟"

- " ده ملف بكتب فيه كل حاجة عنّي .. بياناتي العائلية والشّخصية والمالية ، وما إذا كنت من أصحاب العقارات والأموال من عدمه .. عندي عربية ، ولا لأه .. يعني كلّ صغيرة وكبيرة ، وبعدين تتراجع البيانات دي كلها مع تقرير المباحث الجنائية وأمن الدولة والأمن العام .. وبعدين يشوفوا إن كنت أصلح واللا لأه ."

مندهشة ومتعجّبة ..

- "أمن الدّولة ؟!!!!"

- "أمال انتِ فاكرة إيه .. لازم أمن الدولة يوافق عليّا !! .. ده الحكم الدّولي قبل ما يدولوا الشارة لازم رضا أمن الدولة عنه .. ما بالك بالنّيابة العامة ."

- "ياه .. ده الموضوع كبير بقى ! .. وتفوّقك الدّراسي مالوش قيمة ؟!!!!"

- " لأ .. تفوّقي الدّراسي تفضّل مشكوراً ، وخلاني أشتري الملف ده بس .. والواسطة مع حبينا الحلوين عليهم الباقي ."

- "ربنا يوفّقك يا حبيبي ."

- " أنا عارف إنّي لازم أتقدم ليكي.. بس أنا قلت أستنّى لغاية ما أخلص من موضوع النيابة ده .. وأعرف راسي مـــن رجلي ."

- " ولا يهمّك يا حبيبي .. أنا معاك لآخر العمر .. يعني أنا حاروح فين ."

احتضن "مصطفى" الوسادة التي أخذها بين ذراعية بـــديلاً مؤقتًا عن "داليا" .. أراد أن يؤكّد لها أنها لن تضيع منه أبـــدًا ، ليس كأحلامه وأمانيه التي راحت هباءًا منثـــورا .. ضـــايقته أكمام سترة بيجامته ، فقام وخلع السّترة كلّها ؛ ليكمل رقدته بفانلته الداخلية التي لا تخلُ من بعض الثّقوب مع ترهّلها العـــام على جسده النّحيل .. نظر إلى السّترة ملقاةً على الأرض جوار السرير ، وأغلق جفنيه .. عاد إلى مستقرّه الرّمادي مـــا بـــين اليقظة والنّوم .

شاهد جلسته ، وهو يرتدي ذات البيجامة البالية يحمله أحد اليتامى الأربع ، وعلى يمينه فنجان قهوة بدون أُذن ، وقد وضع أمامه الأوراق التي حواها ملف النّيابة .. أخذ يحرّر بياناته بهمّة ونشاط ، وتفاؤل كان في غير محلّه عن العائلة وأمامه "راضي" يجلس في مواجهته ، ويعدّ القهوة له على الموقد الكحـــولي ..

يسأل أباه دون أن يرفع نظره عن الورق الذي أمامه ، ويجيبه والده فيدوّن ما سمع .. توقّف عند اثنين من أقربائه :

- "بابا .. هو جوز عمتيّ كان بيشتغل إيه ؟"

- "كان - الله يرحمه - رئيس ورش الدّيزل بالسكك الحديد ، انت عارف .. ده كان من الفدائيين وعبر مع اللي عبروا ، والرئيس أنور السادات كرّمه واداله نجمة سينا ؛ لبطولته وشجاعته ."

- " وخالي صبحي ؟"

- "فلّاح .. يزرع ويقلع ."

- "يعني عنده أرض ؟"

- "لأه يا ابني .. ده أُجري عند النّاس .. لكن - يا سبحان الله - حتّة الأرض اللي يزرعها ترمي أعلى محصول ."

- "احنا ما عندناش أي عقارات،أو أموال، أو أي أملاك ؟"

- "ما انت عارف يا ابني ."

- "أنا قلت يمكن تكون عملها لي مفاجأة .!!"

- "لأه يا ابني .. انت الملك الوحيد اللي في حياتي .. بس أنا وربّنا اللّي يعلم .. لا عمري أكلّتك حرام ، ولا صرفت عليك من سُحت .. وكفاية أخلاقك وضميرك ."

يعود مدوّنًا في الخانات التي أمامه :

- " لا يوجد ."

لم يكن يعلم أن ما تعلّمه ، وعَلِمه ، وتلقّاه ،ولاقاه في كلّ سنين عمره الغابرة لا يسمن ولا يغني من جوع .. ما أحمق بيت الشعر القائل :

- "ليس الفتى من قال هذا أبي وهذا عمّي .. لكن الفتى من قال ها أنا ذا "

وما أغفل قائله ، وما أحمر سامعه وعاقله ، والعامل بـه .. فالفتى والرّجل ، و سيّد الرّجال الآن من يقول : "هذا أبي" ، و "هذا عمّي" ، و"هذا زوج خالتي" ، و "هذا جاري "، و "هذا صديقي" ، و "هذا أعرفه" .. مجرد معرفة ، لكني قد أحتاج إليه، أو يساعدني .. فالعلم لا موضع له ، والشخصية لا قيمة لها ، والتفوّق ليس له سوق،ويحيا المثل القائل: .. "اللي له ضهر ماينضربش على بطنه ."

علم الدّرس ، وتعلّمه حين قابل "أحمد السلحدار" أمام مكتب مجلس القضاء الأعلى بدار القضاء العالي .. لا يعلم لماذا سمّي بهذا الاسم ؟ .. هل هناك قضاءٌ عالٍ ، وآخر منخفض ، أو إن شئت قلت منبطحًا .. قابله بعرجتهِ وغروره وصلفه .. لم يتغيّر فيه شيءٌ إلا ارتداؤه لتلك الحُلّة باهظة الثمن عريقة الإنتاج ..

ابتسم بتهكّم ، وهو ينظر إليه ، وإلى الـــواقفين جـــواره ؛ ليؤازروه في هذا اليوم .. فبعد أن كان واقفاً وحيداً أمام مكتب مجلس القضاء الأعلى وسط جمع غفير من المتقـــدمين لوظيفـــة "معاون نيابة عامّة" في توتر محمـــوم ، وإن حـــاول أن يخفـــي علامات التّوتر بالذّهاب والإياب في مكانه .. لكنّـــه مـــا إن وجدهما فجأة قادمين نحوه حتى انفرجت أســـاريره ، وشـــعر بالثّقة والأمان :

- " يخرب بيوتكم . انتم إيه اللّي جابكم النهارده ؟"

رد عليه " فوزي" وهو يتلفّت حوله متفحّصًا هذا الكم من البدل :

- " أنا محامي ممكن أدخل أي مكان أنا عـــايزه .. والبيـــه بقّال زي الفل بس معاه كارنية نقابة المحامين برضة ."

يقبض "مصطفى" على يد "فوزي" متلمّسًا في تلك القبضة شيئًا من الثّقة التي كان يستشعرها دومًا من هذا الصديق :

- " أنا خايف قوي .. و حاسس إن رُكـــبي بتخـــبط في بعضيها ."

مشجعًا ومحفزًا له ،كمدرّب يبثّ في لاعبه روح الإقـــدام ، والثّبات عند اللّقاء :

- "ولا يهمك خليك جامد ، وادخل عليهم زي الأسد .. بس اوعى تعمل فار لما تخش !!."

نظر "محيي" أمامه ، فتلاقـت عينـه مـع عـين "أحمـد السلحدار" :

- " بمناسبة الفيران بصّوا مين هناك ."

نظر "فوزي" .. استقرّت عينه على ذات الشّخص :

- "آه .. أستاذ دبّانة .. على فكرة يا "مصطفى" ، لو ربنا كرمك ودخلت النّيابة لازم تمشي ومعاك علبة بيروسول علـى طول .!!!!"

هتف" محيي" متعجّبًا :

- "وأنت إيه اللي عرّفك إن مخفي الذكر ده ح يقبلوه ؟"

- "خليك واقعي .. أبوه عضو مجلس شعب .. عمّه مـدير أمن .. عمّه التاني رئيس محكمة .. خالة لوا أركان حـرب في الجيش .. يعني عيلة مأصّلة ومرتاحة ."

شقّ جدار تلك المحادثات والهمهمات صوت الحاجب الذي خرج من مكتب مجلس القضاء الأعلى منادياً :

- "مصطفى راضي عبد المعزّ" ..

تقدّم "مصطفى"، وشدّ "فوزي" على يده ، وربت "محيـي" على كتفه .. اخترق تجمّع البدل الواقف أمامه في طريقـه إلى المكتب .. استوقفه "أحمد السلحدار" بتلك الابتسامة السّاخرة المتهكّمة واضعًا يده على كتفه :

- " هارد لك ."

أزاح يده من عليه ، ودخل إلى المكتب ، وأغلق الباب خلفه .. نظر أمامه .. وجد منضدةً طويلة مبالغ في طولها واقفة على أرجلٍ صلبة قويّة ،كأنها واصلة توًا من المملكة المتحدة بعد أن أُنعم عليها بلقب "ليدي" ، أو "دوقة" .. تحلّق حولها ثلاثة عشر كرسيًا كجياد بغير لجامٍ أتوا معها على ذات الرّحلة بعد أن أخذ كلّ منهم لقب "سير" ، أو "لورد" .. تذكّر الأرملة المسكينة التي لديه بالمنزل ، وأيتامها الأربع وحالهم الذي يرثى له .

تفحّص في وجوه من امتطوا تلك الجياد .. رأس المنضدة يجلس خلفها رئيس محكمة النّقض ، وإلى يساره "النّائب العام" .. يعلم أشكالهم ووجوههم جيدًا .. الباقي مستشارين لا يعلمهم ، ولم يكلّف نفسه عناء دراسة وجوههم .. أراد أن يقترب فوجد كفًا يمسك بذراعه الأيسر ؛ ليوقفه مكانه مشيرًا إلى خط أحمر أمام حذائه ، لا يجب أن يتخطّاه .. فتح أقرب الممتطينَ إليه على يساره ملفًّا موضوعًا على تلك الدوقة دون النظر إليه :

- "اسمك : مصطفى راضي عبد المعز ؟"
- "أيوة يا افندم ."
- "أبوك معاه ابتدائية ؟"
- " أيوة يا افندم " .

- "ساكن في حكر أبو دومة؟"

- "أيوة يا افندم ."

- "ذمّتك المالية لا يوجد بها شيئ .؟"

- "أيوة يا افندم ."

- "طيّب .. انصراف ."

مرقت دمعةٌ من بين جفنيه - وهو نائم - إثــر اســتعادته لرؤية ذلك المشهد .. ما كلّ هذا الظّلم .. أين العلــم ؟!! .. أين التفوّق ؟!!! .. أين المــساواة ؟!!! .. أيــن اختبــارات القدرات الفرديّة والقانونية ؟!!! .. أين دولة القانون المنسحقة تحت أحذية المحسوبية الغليظة ، وسياط الطبقية البغيضة ؟!!! .. وأنوار الزيف المبهرة التي تتسلّط على ما يعتقدون أنها نــواقص ومحل عيب !!!.

أيقظته دمعته .. مسحها ، وعاد مسرعًا لدموعه مع "داليا" في حديثه التليفوني معها بعد ذلك الامتهان الذي أصابه بالحزن، والإحباط ، والانكسار مع من يفترض أنهم ممثلون لكلمة "الله" على الأرض :

- "مال صوتك حزين كده ليه .. الموضوع بقاله أكتر من شهرين ."

- "عارفة يا " داليا" .. كأنّهم مستقصدين نقط ضعفي .. أو اللّي فاكرين إنها نقط ضعفي .. كأنّهم عايزين يقولوا لي ..

بتوع النيابة ما يصحّش يبقوا كده .. كان نفسي حد يمتحني في القانون ، أو يسألني في قضية ."

- "على كلّ حال ما تزعلش نفسك ."

- "الظّاهر "فوزي" كان عنده حق ."

- "ولا يهمّك .. إن شاء الله بكرة ربنا حيخيّب ظنّك ، وتلقى اسمك في كشوف الناجحين ."

فتح "راضي" عليه باب حجرته إيذانًا بكسر مجاديل قبر نومه، وبعثه لحياة الاستيقاظ من جديد .. كان قد فعلها معه قبيل شهر أثناء حديثه المحبط مع "داليا" :

- "إيه يا ابني إنت مش ناوي تنام .. النتيجة بكرة ولا أنت مش ناوي تروح تشوفها ."

- "لا يا بابا أنا حشوف النتيجة الأوّل ، ولمّا أرجع أبقى أنام ."

- "ربنا يجبر خاطرك ، وخاطري يا ابني .. على فكرة .. سلّم على" داليا ."

لكن تلك المرّة ليس هناك نتيجة .. تلك الوقفة ل-"راضي" ليس وراءها أمل يدفعها .. كل النتائج عُلمت وحُسمت وكانت متوقّعة .. من أبصر الدنيا وعقل حقيقتها يعلم ذلك .. انتهى كلّ شيء .. ظهرت النتيجة المعدّة سلفًا .. تمّ تعيينه في فراش النوم كسير الفؤاد .. تم تعيين "أحمد السلحدار" معاون

نيابة بنيابة الإسماعيلية الجزئية ضمن مائة وثلاثة وعشرين معاون نيابة عامّة بقرار جمهوريّ .. المصادفة المعلومة ، والمرتب لهـا سلفًا أنّ كلّ المعيّنين من أولاد المستشارين ، أو الـوزراء ، أو أعضاء مجلس الشعب ، أو من لديهم من الأموال والشـراء مـا يوازي تلك المناصب السّابقة .. حتى مجلس الـشعب لم يعـد مجلساً للشّعب ،و إنما مجلسٌ لمن يمتطون مقاعـده .. والعاقبـة عندكم في المسرّات .

وقف "راضي" عند عتبة الباب .. نظر إلى ابنه المـدفون في سريره بحزن وشفقة .. محاولاً جمع شتات شجاعته المبعثـرة في ظلام خوفه المدلهم على ابنه الغارق في ليلٍ طويـلٍ لـيس لـه نهار .. زفر زفرةً كسيرة بعد شهيقٍ عليلٍ .. لم يكُن ينقصه إلا البوق ؛ ليبعث هذا الموؤود من وأدته .. دخل عليه الحجـرة ، وفتح النّافذة لتغرق في ضوء النهار .. نعم لازال هنـاك نهـارٌ وضياء ، وأملٌ وتفاؤلٌ وسعي .. لكنّ النّائم لا يحرّك ساكنًا .. اتجه ناحية السرير ، وبصوت يحاول أن تغلـب عليـه نـبرة التفاؤل .. وقد أشاح الغطاء الذي تكفن به وليده الحزين :

– "إيه يا عم النّوم ده كله .. ما حدش رفضوه في النيابـة غيرك إنت ، واللّا إيه ؟ قوم يا راجل ، وخلّيك تقيل الأحمـال زي أبوك ."

دون أن يغير من هيئته ،أو حالته التي عليها :

– " أقوم أعمل إيه بس يا ابويا ؟ سيبني الله يخليك ."

– " أسيبك إزاي ، وأنت كده !! .. إنت كنت متخرّج عشان تطلع معايا على المعاش .. ما فيش نيابة .. يبقى في غيرها .. قوم يا ابني دوّر على لقمة عيشك عشان تحس بقيمتك في الدّنيا ."

– "كان أملي أتعيّن فيها .. وده حقّي ودفعت تمنه ."

– "الخيرة فيما اختاره الله .. وما دام ربنا قدّر بكده .. يبقى نسعى في حتة تانية ."

– "فين بس .. هو فيه خرم إبرة ؟!!"

– " اللّي يدوّر يلاقي .. وصدقّني يا ابني .. ما ضاقت إلّا ما فُرجت .. والله ما هي نهاية المطاف ."

بعثت كلمات "راضي" الحياة في رفات "مصطفى" الملقى على السرير .. أعادت ساقية الحياة لتعمل من جديد .. قلّبت بئر السعي داخله ، فأخرجت منه مياه الحركة ؛ لتسري في عروقه وشرايينه دماء الأمل باعثة في جسده القدرة على القيام ، وتجاوّز تلك العقبة في مشوار حياته الذي لا يعلم إلام سيوصله .. رفع "مصطفى" الغطاء من على رأسه بكسلٍ وإحباط لازالا متعلّقين به .. جلس من رقدته .. دون أن يرفع رأسه لأبيه الواقف أمامه :

– "حاضر يا بابا ."

الفصل السادس

إعلاناتٌ مُبَوَّبَة

- ١ -

استعاد "مصطفى" عافيته من سقم الإحباط .. ضمّد جراح الصّدمة القويةّ التي تلقّاها على صخرة الحقيقة القاسية ، ولم تكن في حساباته ، بل لم يكن يعرفها بعد .. أسال عليها مياه الأيّام لتندمل معها .. أفاق من غيبوبته التي اختار أن يدخل فيها بإرادته .. خرج منها غير سعيد كمدمن شُفي من إدمانه ، لكن نشوة المخدّر لازالت عالقةّ بجزءٍ خفيٍ من عقله .

كأي خريج جامعةٍ بلا عمل .. علم كل البشر أنّه يبحث عن وظيفة .. الكل يعد ولا يفي .. كل النّاس على صلة بكلّ الوزراء ، ورئيس الوزراء ، ورئيس الجمهورية ذاته .. الكلّ يؤكّد أن من سبق ذكرهم وعدوا ، وحلفوا ، وأقسموا ، وكادوا يبكون ؛ ليصدّقوهم أنه على قمة أولوياتهم توفير فرصة عمل للحبيب الغالي "مصطفى راضي عبد المعز" .. الكلام ليس له قيمة .. أو له قيمة لم نعرفها بعد .

انتقل "مصطفى" إلى المرحلة التّالية من تلك الرحلة الجهنمية للبحث عن عمل .. مرحلة "جريدة الأهرام" .. فبعد أن أُوصدت أبواب الأقارب ، والأحباب ، والأصدقاء ، والأخوال، والمعارف ، والجيران وعابري السبيل في وجه السّائل عن عمل ، وفي معظم الأحايين تكون لقلّة الحيلة .. تبقى نافذة "جريدة الأهرام" هي الملجأ الآمن ، والملاذ الحصين

خاصةً في عددها الصادر يوم الجمعة ، وذلك لعدة أسبابٍ جوهرية ومنطقيةٍ في ذات الوقت :

.. فهي تعرض في ذلك العدد وظائف متجدّدة ، ومتنوّعة في كلّ أسبوع .. أصحاب تلك الوظائف هم من يطلبون ، ويرغبون في استعمال موظّفين .. الانتظار والترقّب لعمل اللقاءات مع أصحاب الأعمال يعطي أملاً دائماً ،وثقةً متجدّدة، وتنقيحاً في القدرة على العرض والتقديم .. أحياناً بعزّة نفس ، وغالبًا بغير ذلك ؛ لأنّ السائل عن وظيفة ناقص .. غير مكتمل الأهلية .. يُنظر له نظرة دونية .. إما لأنّه سوف يطلب فرصة عمل من أيّ شخص يتعرّف عليه إن آجلاً أو عاجلاً .. وإما لأنّه بلا عمل ، وبالتالي فليس له مستقبل ؛ لأنه فقيرٌ عديم العمل عديم المستقبل .. والفقر الذي يتشدّق الجميع ممّن لا يعقلون في محاولة لإقناع الآخرين بأنه ليس عيباً .. في حين أن الفقر عيبٌ .. نعم الفقر عيب .. ومن يقول غير ذلك فهو مكابرٌ ، أو مجادلٌ ، أو واهم ، أو غير فاهم .

.. من مميزات الأهرام في عدد الجمعة الأسبوعي - أيضاً -:

إبقاء باب الأمل ولو على استحياء غير مغلق ، وما دام الأمل موجوداً .. إذن القدرة على الحياة باقية .. اليوم تتمّ المقابلة فيشع الأمل في النفس بإمكانية القبول كشمس أضاءت الأرض بنورها .. تطول الفترة بين اللقاء وعدم الاتّصال ،

فتميل شمس التفاؤل لتلك الوظيفة ؛ لتصير مصباحاً واهناً ضعيفاً محتضراً مستقبلاً رسل الظلام .. لكن عند هذا الحد تظهر هناك على الأفق وظائف أخرى غيرها تم التقدّم إليها ، ولازالت الفترة قليلة جداً للاتصال وزفّ خبر الموافقة ، والقبول في الوظيفة مما يبقي ساقية الأمل دائرة ؛ لتروي أرض الشّباب الظمأى للعمل معلنة عدم بوارها ، أو على الأقل تأخير ذلك الإعلان .

هذا هو السرّ الخفيّ الذي لا يعلمه غير العاطلين حول تربع عدد "الأهرام" الصادر يوم الجمعة على قمّة التوزيع دون غيره .. لأن مريديه كثر،ولا يبحثون فيه إلا عن الوظائف الخالية من خلال نافذة الإعلانات المبوبة .

ظلّ "مصطفى" قرابة العامين يطلّ من النافذة كل يوم جمعة، حتى اعتاد على المنظر الذي يطلّ عليه .. بدأت تتولد لديه خبراتٌ قويّة في البحث .. بدأ يعلم ويفرّق بعين الخبير بين الإعلانات الجادّة عمّا سواها .. مثل إعلان طلب المندوبين ، والذي له آلاف الطرق والسّبل في العرض ، حتى يلتفّوا حول عقول من يقرأه ، فلا يعرف أنّه إعلان عن طلب مندوبين .. علّة ذلك أن المندوب هي الوظيفة التي لا يدفع لها راتب .. راتبها عبارة عن عمولة تحصّل من قدرة المندوب على بيع السّلعة ، وتسويقها ، وعادة يكون ذلك بعد ثلاثة أشهر من العمل غير الآدمي .. ومن يقبلها ، ويبدأ في العمل بها ، ودائماً

يكون بدون تحرير عقد عمل يكون قد حقّق فيهـــا تقـــدّماً ، واستطاع أن يبيع السّلعة التي يعرضها أو يسوق لها بعد جفاف حلقه .. لكنّه يفاجأ أن نسبة المبيعات ، أو الهدف ، أو الحـــد الذي يجب عليه الوصول له لم يتحقق بعد .. وعليـــه إمّـــا أن يحاول مرةً أخرى خلال ثلاثة أشهر أخرى بلا راتب ، أو يعود لحظيرة العاطلين مرّةً أخرى ، والخيارُ له .. تلـــك هـــي قمّـــة الديمقراطية بحق ؛ لأن المندوب حينئذ يكـــون هـــو صـــاحب الخيار .. في غالب الأحيان يأخذ الخيار ، وهو عالم تماماً أيـــن سيكون موضعه ؟ .. سواء بقي في هذا الغبن المسمى افتئاتـــاً ، وافتراءاً بالعمل ، أو عودتـــه ؛ ليجـــدّد اشـــتراكه في نقابـــة العاطلين .

لم يستطع "مصطفى" اقتناص أيّ فرصة مـــن سمـــاء تلـــك النافذة .. فهو خريج كليّة "الحقوق" .. بلا خبرة .. مع إضافة أنّ هناك قرابة النصف مليون محـــامي ، أو حامـــل ليـــسانس الحقوق .. لكنّ العمل يرتبط بالرزق ، وهنا تـــدخل المعـــايير الإلهية الفوقية التي لا يستطيع أن يرفع بشرٌ وجهه فيهـــا .. لأن الأسباب عندما تعجز .. يبقى المسبّب وحده - سبحانه وتعالى - القادر على أن يقول للشيء كن فيكون .

دخل "مصطفى" من باب الشّقة منهك القـــوى .. علـــت قسمات وجهه علامات خيبة الأمل ، واليأس واضحة .. أطلق نظرة متعرّجة من حيث يقف بالصّالة إلى "راضي" الجالس على

الأريكة العربي في انتظار قدومه .. تبع نظرته لأبيه لكنه لم يصل معها .. وقف على عتبة حجرة "راضي" .. لم ينطق بكلمة .. خاطبت عينه عيني والده بما يدل على الانهزام ، والانكسار ، وقلّة الحيلة .. كسر "راضي" هذا الحوار العيني ؛ ليدع مجالاً لحديث اللّسان :

- "معلش يا ابني بكرة تفرج ."

- "امتى يا بابا ؟"

- "دي مش مشكلتك لوحدك يا ابني .. دي مشكلة كلّ اللّي زيّك ."

- "بس أنا اجتهدت اكتر من اللّي زيي .. وطفحت الدم في المذاكرة ، والسّهر أكتر من اللّي زيي .. لكن تيجي ميتين أمّ الواسطة ، وتسرق حقّي ."

- "معلش يا ابني .. ما تعملش في نفسك كده ."

- "عارف أنا مشكلتي إيه يا "أبو مصطفى "؟ .. مشكلتي إني دخلت الكلّية دي وعيني على سلك التدريس في الجامعة ، أو سلك القضاء .. كنت فاكر إن مهرهم في جيبي .. مذاكرة .. تفوق .. طلوع من الأوائل .. لكن الحقيقة إن السلوك دي طلعت سلوك عريانة ، واللي يمسكها من غير ما يبقى واقف على حاجة تحميه وتسنده .. يتكهرب وإيديه تتحرق ؛ لأنه اتجرّأ ومسك اللّي ما يقدرش عليه .

وهو يشيح بكفه الأيمن الممسك بمسبحته .. مبتسماً في غير سعادة :

- "المحاماة مش وحشة برضة يا ابني ."

- "مش بتاعتي .. مش للي زيي .. أنا عمري مـــا تخيلــت نفسي محامي .. المحاماة دلوقتي عايزة اللّعب بالتلت ورقـــات ، وشغل الحنجل والمنجل عشان تجيب منها فلوس .. وأنا مـــش كده .. وأنت ما ربتنيش على كده ."

- "على كلّ حال أهي فُرجت .. الأسطى فلفل جارنا قال لي : "إنه كلم لك محامي في الأزهر اسمه "الأســتاذ صـــالح" ، وممكن تشتغل عنده من بكرة ."

قالها وكأنّه أنهى المشكلة ، وأتى بالحلّ الأمثــل لهـــا .. لم يتفاعل "مصطفى" مع ما سمعه ، أو انفعل به .. أخيراً الوظيفـــة أتت لكنه صار محصّناً ضد البهجة .. التفت مغـــادراً مكانـــه لحجرته :

- "ماشي .. أخش أنام .. والصباح رباح ."

- "مش حتاكل يا ابني ."

وهو في طريقه لغرفته ، دون أن يلتفت لـ-"راضي" :

- "شبعان قوي .. الحمد لله ."

- ٢ -

مالت شمس الأصيل إيذاناً بمغادرتها .. وهنت آشعتها وشاخت..صارت كمن يتحسّس خطى الخريف بعصا عجزه ، وقلّة حيلته..كابد ضوؤها ليئير ما يسقط عليه قبل الخفوت ، وإضاءة الظلام بعتمته .

جلس محيي وقد تحوّلت هيأته تماماً إلى بقّال شكلاً ومضموناً .. ارتدى ذلك البالطو الأصفر الذي طالما تهكّم على والده كلّما رآه يرتديه قبل أن يذهب ، ليكتشف ما بعد الحياة الدّنيا .. صار بديناً بفعل جلسة المحل وعدم الحركة وبعض التذوّق من هنا وهناك .. انطفأ بريق عينيه اللامع بفعل زجاج العدسات التي وضعها أمامهما من خلال تلك النظارة الطبية .. لم يعد يناديه "بمحيي" إلّا القليل ، ونادراً من الأحيان .

تبدّل اسمه إلى : "أبو آية" .. تلك الصّغيرة التي أنجبها بعد تسعة أشهر من زواجه بابنة خالته في غضون أشهر قلائلٍ من تخرّجه من الجامعة .. ترك أعمدة دخان السجائر ، وطلّقها بعد أن اقترن بسحب دخان أخرى اعتاد عليها من رفيقته الجديدة الشيشة بفعل الإمداد والتموين من قهوة "على قد لحافك" .

تغيّر المجلس من داخلها ، أو أمامها إلى أمام محل البقالة الذي تغير اسمه إلى : "ميني ماركت آية" .. لم يتغيّر مكانه .. ظل

قابعاً أسفل بيته بحارة "كوع النّسناس" .. أصبح صاحب محل وتجارة .. صاحب بنت وأسرة .. صاحب مجلس .. صاحب علّة في القلب لم تمنع كل توسّلات زوجته ، وأوامر الأطبّاء وتحذيرات "فوزي" ، و "مصطفى" له بترك ذلك الدّخان القاتل الذي أطلقه من فمه في غزارة عجيبة مع ضحكاته العالية التي قطعها تارة خروج هذا الكمّ من الدّخان ، وتارة سعاله الذي يكاد يمزق رئتيه وهو يسمع ما يقصّه "مصطفى" على مسامعهما هو "وفوزي" الذي ظلّ كما هو .. لم يزد عليه إلا اتساع موجة الجذر على رأسه مخلّفة وراءها مساحات واسعة متوالية الاتساع بغير توقّف من الصّلع .. أصبح محققاً بوزارة المالية بعد وساطة خاله للمرة الثّالثة في التقدّم للوظائف الحكومية ، والذي يعمل بأرشيف ديوان عام الوزارة .. لم تتغير جلسته المتزلقة على مقعد الكرسي الجالس عليه .

حتّى "مصطفى" من كثرة الصّدمات وتخبّطه في دروب الحياة ، وملاطمته لأمواجها .. أصبح ساخراً غير عابئ بما يجري له لدرجة العبثية .. لم ينس أبداً ذهابه إلى مكتب الأستاذ "صالح"(المحامي بالأزهر) .. كان أول مكتب محاماة يعمل به في حياته المهنيّة .. لم يستطع استيعاب أنّ الذي أمامه هو مدخل البيت الذي يحوي ذلك المكتب رغم وقوعه بشارع حيسويّ مثل : شارع "جوهر القائد" (بحي الأزهر) الذي ينير على أحد

جانبيه مسجد سيدنا الحسين ، والضريح الذي يحـوي رأسـه الشّريف ، وعلى الجانب الآخر تلك المنارة العتيقة التي تجـاوز عمرها الألف عام .. إلا أنّ عرض المدخل لا يتجاوز مطلقـاً النصف متر بدون أدنى مبالغة .. السُلّم الذي يجب أن يرتقيـه الصّاعد إلى المكتب بالطابق الثالث يتم الصعود عليـه بجانـب الجسد ، وليس بالمواجهة كباقي السلالم والدرج .. كل هـذا ورغم حقيقته المبالغ فيها يتوارى خجلاً من الحجرة التي علـم "مصطفى" أن بها مكتبه المشترك مع زميلته "حنـان" ، ومـا حدث له في أوّل يوم دخلها .. فجأة وبدون مقدّمات انبعـث دخانٌ كثيف جدًا يكُاد يعمي الأبصار .. لم ير زميلته الجديدة ، بل إنّه لم يستطع أن ير كفّ يده من كثافة الدّخان المنبعـث من النافذة الوحيدة بتلك الحجرة .. انعدمت الرؤيا .. سـعُل بحرارة .. صرخ معتقداً بل متيقّناً أنّ هناك حريق .. أخيراً أدرك ما يحيطه .. سأل .. علم أن ذلك الدخان مبعثه حريقٌ يـوميّ عنـد المعلـم "عبـاس نيفـة"(الكبـابجي) .. الأستاذ صالح يقضي منه غرضه في أكـل كافّـة أنـواع المشويات بربع ثمنها ، إن لم تكن مجانًا بفـضل الاستـشارات القانونيّة الدّائمة ، وإنهاء أيّ إجراءات للمحل بـالحي ، أو أيّ جهة أخرى ؛ لذلك وافق على ترك فُتحة مدخنته على نافـذة حجرة المحامين الذين لا يشتكون ، وإن اشـتكوا مـن ذلـك الوضع المزري فالمسألة بسيطة جـدًا .. "اقبـل الأمـر ، أو اتركه" .. وعليك تحمّل مسئولية حرمانك من عملٍ تتقاضـى

منه ستين جنيهاً .. وكما كان يقول الأستاذ "صالح" ضـــاحكاً ضحكة سخيفة مستفزّة ، وهو يقضم إصبع الكفتة ، أو قطعة اللحم المشويّة بالضلع الضاني المائلة ؛ ليسدّ أيّ فراغٍ في فيه :

- "مش كفاية سايبكوا تـشموا ريحــة كبـــاب وكفتـــة ببلاش .!!!!"

تجلى ذلك كلّه وغيره ممن قابلهم "مـــصطفى" في وظـــائف مختلفة ، وأنماط من البشر متباينة .. في رواياته لـــصديقيه عـــن مغامراته الوظيفية في تهكّم مريرٍ ،وسخرية تعيسة :

- "والله زي ما بقول لكم كده .. وغيره وغيره .. نـــوادر مش ممكن تصدقوها ."

اعتدل "فوزي" في جلسته كعادته بعد نوبةٍ من الـــضحك الهستيري :

- "وبعدين يا "مصطفى" .. ح تعمل إيه ؟"

- "والله ما أنا عارف .. الزّمن قاعد يلطّش فيّا ، ولغايـــة دلوقتي مش راسي على برّ .. خمس سنين أهو وأنا من مكتب لمكتب ، والكل بيمرمط فيّا شويا .. يمكن لو كان ربّنا كرمني زيك يا "فوزي" ، واتعيّنت في المالية كان الوضع اتغيّر وقدرت على الأقل أتقدم لـ"داليا" عشان أخطبها .. بدل مـــا هـــي هتحمض جنبي " .

تراجع "محيي" عن سحب نفسٍ عميقٍ من الشّيـــشة الـــتي أمامه .. لكنّه أبقى على المبسم إلى جوار فمـــه ؛ ليـــدلي ل- "مصطفى" بنتاج تجربته :

- "صدقني يا صديقي تمهّل ، ولا تتعجّل .. أنـــا قـــدّامك أهو..أتجوزت وخلفّت كمان .. واتكعبلت في لخمـــة البيـــت والخلف .. إيه اللّي زاد عليا .. بدل "محيي" بقيت "أبو آية" .. والبقيّة تأتي ."

أشاح "مصطفى" بيده في وجه "محيي" مستاءًا مما سمعه منه :

- "والله العظيم . إنت في نعمة ما انت حاسس بيها ."

التقم "فوزي" سيجارة من علبة سجائره التي صارت مـــن ماركة إل . إم :

- "ربّنا يسهّل يا "مصطفى"، وأقدر أزقك بعقد عندنا لغاية ما ربنا يفرجها ."

- "يا ريت يا " فوزي" .. لحسن أنا خلاص .. اســـتويت وشكلي قدام "داليا" بقى وحش قوي .

- ٣ -

سارا في شارع "طلعت حرب" .. الحرّ شديد .. الجو خانق .. الهواء هرب مع نسماته .. لا أحد يعلم إلى أين .. يشاهدان واجهات المحال في حركة آلية .. يتوقّفان ثم يكملا سيرهما .. وصلا لسينما مترو .. تعرض فيلماً رومانسياً .. نظرت في عينيه .. دعته بعينيها للدخول .. ابتسم ، وهمس في أذنها أن تكون جلستهما في كافيتيريا النّقابة العامة للمحامين ؛ لأنها أرخص .. ما معه من نقود يكفي لطلبين فيها فقط .. كان صريحاً معها ، ولا يخدعها ، أو يوهمها بما ليس فيه أو معه .. وافقت مبدية تفهّماً غير صادق .. أكملت معه المسير في انتظار أن يصلا لذلك المكان .. من سينما مترو ، وحتّى النّقابة لم تنقطع عن الكلام عن أمّها ، ومشاريعها التّافهة ، وعن أبيها ومشاريعه المربحة .. وعن أخيها ، والشقة التمليك التي اشتراها أبوها له في شارع "أحمد عرابي" بقرابة الربع مليون جنية .. استمع إليها أولاً ، ثمّ بدأ كلامها يتحول لطنين في أذنيه ، ثمّ تحوّل الطنين لدوي ، ثمّ أصبح ضوضاءً تدخل أذنيه بغير تركيز كغيره من الأصوات التي تحيط به .. نفير السّيارات .. صياح الباعة الجائلين .. أصوات محركات السيارات المارة إلى جوارهما .

جلس على مقعده بكافيتيريا النّقابة ، واستقرّت أمامه دون انقطاع عن الكلام .. وهي تعيد عليه ما قالت ، ثمّ تسأله :

- "ها ،قلت إيه ؟"

لاختلاط كلّ تلك الأصوات التي دخلت إلى أذنيه بدون استئذان .. ردّ عليها بتلقائية من لم يسمعها .. وعفوية من لم ينقّ صوقما عن صوت شكمان سيارة مثقوب :

- "في إيه ؟"

- "اسمع يا "مصطفى" .. لازم يبقى فيه حاجة رسمي .. لازم تيجي البيت عشان صورتي أنا ما تبقاش وحشة ."

أتى النّادل .. طلبت عصير مانجو مثلّجاً كبيراً .. نظر إليها ، وهي تطلب ما تطلبه .. نظر إليه النادل .. طلب شاي رغم أنّه يهوى القهوة .. القهوة بمائتين وخمسين قرشاً ، أمّا الشاي بجنيه واحد .. لا يعلم ثمن عصير المانجو الكبير .. وليس في جيبه سوى خمسة جنيهات .. لاشك أن الطّلبين لن يتعديا ما في جيبه .

نظر إلى السّماء ، وقد شابك أصابع كفّيه خلف يده .. زفر زفرة ضيق من تلك الحياة التي لا ترحمه على كلّ مساراتها .. عتب على "داليا" .. كأنها لا تحيا حياته التي يحياها .. كأنّه لا يشركها فيها تليفونياً ، أو من خلال

مقابلاتهما شبه اليومية .. هي تعلم عنه دقائق أموره .. حبّها وعاطفتها هي الجنّة التي كان يجب أن تكون ظلالها وارفة عليه .. ترفق به وتحميه من هجير زمانه القاسي .. لكنّها تحوّلت إلى سياط إلحاح لا ترحم :

– "هاجي بإيه يا "داليا" .. أخطبك بملفين قضايا يعني .!!"

أكمل جملته ، وقد أحضر النّادل الطّلبين .. وضعهما أمامهما وانسحب في هدوء .. هتفت "داليا" بصوت خفيض كطفلة صغيرة تريد أن تنال ما تريد وقتما تريد :

– "مش مهم أي حاجة . إنشالله دبلتين حتى ."

– "وأبوكي ، هيوافق على كده ؟!"

– "ما لكش دعوة ببابا .. أنا هأقدر عليه .. المهم إنّك تيجي ، وتظهر في الصورة ."

– "حاضر يا "داليا" .. حاضر ."

تجرّع الشاي بامتعاض .. ألقت بالعصير في جوفها .. أكملا الجلسة بكلامٍ رتيب خرج من فمهما لم يمر على القلب، أو يستأذنه حتّى في الخروج .. أنهت العصير .. لم يستطع أن يكمل الشاي .. نادى على النّادل .. أعلمه أنّ الحساب أربعة جنيهات .. نقده الورقة المالية الوحيدة التي في جيبه .. رفض النّادل أخذها ؛ لأنها قديمة جداً ، ومتهالكة .. انفجر

"مصطفى" في وجه النادل كبركان فيـزوف وهـو في أعلـى درجات غليانه .. علت الأجواء سحب داكنة من الغضب .. تخطّى النّادل ببصره علامات ثورة "مـصطفى" الظّاهريـة .. استقرّت بصيرته على هذا القهر الباطني المدفون داخله وشاهده في عيناه .. ابتسم النّادل له في ودّ .. اعتذر بأدبٍ جمٍ عن سوء الأدب الذي صدر منه ، وتلك المعاملة غير اللائقة .. أخذ منه ورقته المتهالكة ، وأعطاه جنيهاً جديداً جداً مكرّراً أسفه عمّـا بدر منه ، وانسحب في هدوء .. استأذنته "داليا" للـدخول إلى الحمام قبل الانصراف .. طاف النّادل مرةً أخرى عند منـضدةٍ على مقربةٍ منه .. نظر "مـصطفى" إليـه .. أراد أن تتلاقـى عيناهما؛ ليعتذر له ، وليشكره على صـنيعه .. أبى النّـادل ، وكأنه علم ما يفكر به "مـصطفى" .. أتـت "داليـا" ، ولم تجلس .. نظرت "لمصطفى" نظرة من يريد الانصراف .. قـام وغادر معها .. اقتربا من النّادل في طريق خروجهما .. ظهـره لهما .. اقترب منه "مصطفى" في سيره .. ربت علـى كتفـه الأيسر دون أن تتلاقى أعينهما .

وقف "مصطفى" ، و "داليا" أمام باب النّقابة المطلّ علـى شارع رمسيس .. ثوان وأوقف لها سيّارة أجرة .. فتح بابهـا الخلفيّ .. ركبت وأغلقَ الباب .. تمّ الوداع بإشارات يدويّـة آليّة معتادة .. لأوّل مرة منذ معرفته بها شـعر براحـةٍ عنـدَ

انصرافها .. سيطر ذلك الشعور عليه .. لم يعلم في بادئ الأمر ما سرّه .. لكن ، ومع السّير الطويل من وقفته ، وحتى مترلـه انتظمت عملية التفكير بداخل عقله .. رتّـب أوراقـه .. أولاً علم أن سرّ راحته في انصرافها هو : "أنها ولأول مرة يكـون عدم إحساسها به فجّ إلى هذه الدرجـة ." .. الدرجـة الـتي جعلت النّادل يشعر به وبما في باطنه ، ولا تحس هي إلا بطعـم المانجو في بطنها .. اعتاد منها على هذا الأمـر ولكـن كـان بدرجة معينة .. ما الذي جعله يصل إلى هذا المستوى .. هـل لأن تفكيرها منصبٌ على ضرورة التقدّم لها وخطبتها ؟.. يجب ألا يعلو صوتٌ فوق صوت الارتباط الرسمي .. ربّما .. بـدأ وجهه يتفصّد عرقاً .. السير مع حرارة الجو إضافة إلى التفكير أعطاه حمّاماً ساخناً من العرق المحمّل بتراب الطريق .

وصل إلى الكورنيش وأمام مبنى التليفزيون جلـس يأخـذ قسطاً من الرّاحة على وجهه يصافح نسمة هواء شاردة في هذا الجو الخانق .. أو يفيض عليه النّيل بكلّ ما فيه ، وكلّ ما يحمل من عبق الماضي وروائح السّنين ببردٍ خفيّ يغير ما هو عليـه .. لم تتم المصافحة ، ولم يحصلِ الفيضُ .. لا يعلم لمـاذا تـسبوقه قدماه إلى هذا المكان تحديداً ، عندما يشعر أن الدنيا قد أعطته ظهرها ؟! .. هو لم يتعرّف على وجهها بعد .. حـتى إن رآه فهل سيعرفه ؟ .. كلّ ما لاقاه من دنياه ظهرهـا الأحـدب ، وهجيرها القحط .. أودع مكنون سرّه لرفيق دربه السّاري منذ الأزل والباقي حتّى النهاية .. لم يكلّ يوماً من الـسماع ، ولم

يضجر أبدًا من إيداع الأسرار فيه .. كأنّ الله قد وهبه لهؤلاء المودعين فيه سرّ شكواهم المُرّة ، وغُلبهم الحزين ليكون لهم نيّلاً؛ لينال كلّ منهم ولو راحة بسيطة ، أو هدوءاً نسبياً بعد ذلك الإيداع عسى أن يجدوا فيه فرجاً لكروبهم .. قام وأكمل سيره في دربه المرسوم له .. وقراءة ما خطّه القدر في كتاب حياته .

وصل إلى الحارة ، وانعطف إلى الزّقاق .. هناك صخب عارم ، وضجة تنبئ عن شيء غير طبيعي .. دائرة من الناس أمام الزّقاق .. صوت المعلم "حلي" الجهوري يعلو ومعه تعلو يده وتهوي .. يصدر صوت ارتطام لحم بشريّ غالباً أحد طرفيه كف المعلم "حلي" ، ومن المعتقد أنّ الطرف الآخر هو : إما قفا أو وجه أحد الأشخاص .. لكن وجه من هذا الذي يتحمّل كلّ تلك اللّطمات ؟!! .. وجد "مصطفى" نفسه بدافع الموروث الإنسانيّ العربيّ المصريّ في وسط الدائرة .. المعلم "حلي" يقبض بيده اليسرى على تلابيب شابّ في منتصف العشرينات .. تلك القبضة لا يمكن أن يفلت منها أحد بسهولة .. لحظات واخترق السّياج البشري ضابط برتبة "نقيب" واثنان من أمناء الشرطة .. سلّم المعلم "حلي" ذلك اللص الذي انقضّ على شقة السّت "سنية" بغية أن يجد شيئاً من دخل الدّعارة الوافر بالنسبة لأيّ عملٍ آخر يعمله سكان

الحارة بخلاف المعلم "حسي" طبعاً .. لحظاتٌ أخرى ، وانفضّ الجمع .

أراد أن يكمل "مصطفى" طريقه لشقّته ، لكن المعلم حلمي استوقفه ، ثمّ تركه ينصرف ؛ ليتفرغ للسّت "سنية" التي وقفت تشكره بحرارة تفوق حرارة جسدها الذي يشعّ لهيباً حارقاً .. كانت تستحم عندما اقتحم اللص عليها المسكن .. وقفت أمامه ولا يستر لحمها إلا جلباباً مشقوقاً . جيبه مشقوق الجانب الأيمن .. ماذا سيفعل هذا الجلباب المسكين أمام كلّ هذه الأنوثة الطّاغية ؟

أهمّ ما يميّز السّت "سنية" : أنها كانت عاهرة بأدب .. تعمل في الدّعارة ، ولكن وفق الأصول والتقاليد .. لم يستطع أحدٌ من سكان الزّقاق ، أو الحارة أن ينالها .. صاحبة واجب تولول وتنوح في المآتم .. ترقص وتزغرد في الأفراح .. تعود المريض سواء كان رجلاً أو امرأة .. تذهب بانتظام غاية في الدّقة إلى المقابر في العيدين ، والنّصف من شعبان ، وغرّة رجب ، والعاشر من محرم ، والثاني عشر من ربيع الأول ؛ لتتصدق من مالها على روح ابنها "إسلام" .. كان لديها يقيناً بأنّ الله سوف يتوب عليها ويدخلها جنّته .. وإن لم يفعل فلمَ أخذ منها قرّة عينها ، وفلذة كبدها ؟! .. لا تنس الحارة ذلك اليوم المهيب الذي علمت فيه بالخبر عندما وقف الشرطي

أمامها ، وأخبرها أنّ ابنها صدمته سيارة ، ومات وهو الآن في المستشفى ، وعليها أن تأتي ؛ لتتعرّف عليه وتستلمه .. شقّت ثيابها وخرجت عارية تلطم الخدود وتهيل التراب .. قالوا حينها إنّها كانت تستحمّ أيضاً .. كثير هو استحمام السّت "سنية" !!! .. ولكن هل سبب ذلك رغبة في نظافة لن تدركها .. أم عودتها من عمل يستوجب الاغتسال حتّى تكون على طهارة .. تسابق الرّجال قبل النّساء ؛ ليواسوها في مصيبتها ، ويطلبوا منها أن توحّد الله وتستغفر .. كثير من الأيادي ربّت على لحمها في ذلك اليوم .. في كل موضعٍ من جسدها العاري ، وهي في حالة فقد للصواب الحقيقي .. حتى اخترق الجميع المعلم "حلي" ، ووارى جسدها العاجي بعباءته ، بل واحتضنها داخلها ، ثمّ نظر لبعض أشباه الرجال ممن كانوا يعزوا أنفسهم ، وبصق عليهم في مواجهتهم .. لم يقوَ أحدٌ ذلك اليوم على الرّد عليه ، أو معاتبته أو حتى إظهار الاستياء منه .. ليس لسطوته ، أو تجارته ، أو إجرامه أو أيّ شيءٍ من هذا القبيل .. لكن لأنّ فعلته كان دافعها الرجولة ، ومحرّكها الأساسي هو : "إخفاء السوءة ، وجن اللحم" .. حتى ذلك الحضن على الملأ كان إعلاناً للأسف على فقد الولد الذي مرّ به هو سلفاً ، والمشاركة في مشاعر الحزن مع إسباغ الحماية ، وعدم التعرض أو النهش .. حتى وإن كان ذلك اللحم

مستباح .. لكن هناك حرماتٌ لا يجوز المساس بها .. هذا ما كان يقبع في صدر المعلم حينئذٍ ..

أمّا صدر الستّ "سنية" ، فكان ولا يزال ناهداً .. لا يحتاج إلى حمّالة .. وساقاها لا يحتاجان أكثر من ذلك الشق في جانب الجلباب الأيمن ؛ ليدل الشيطان من يراهما إلى أقصر طرق الجحيم مسلكاً ..

- " اطلعي انتِ دلوقتي ، وأنا هعدّي عليكي بالليل عشان أعرفك إيه اللي حصل مع ابن الشرموطة ده ."

انفرجت شفتاها الغليظتان عن ابتسامة له في دلال تنمّ على الشكر ، والعرفان ، والاستعداد لردّ الجميل بشتّى الطّرق والأوضاع .

اتجهت إلى شقّتها .. رقبها "مصطفى" بطرف عينه الخائن .. رفعت ساقها اليمنى ؛ لتتخطى عتبة المترل فانكشفت قطعة من لحمها الأبيض حتى ركبتها .. انطلق إلى شقّته ، ومنها إلى الحمّام خلع ملابسه ، وأدار مقبض الدش .. انهمرت المياه على جسده الملتهب .. أخذ الصابونة وغسل جسده كلّه ودعك كل أعضائه دعكاً جيداً ،ثمّ ترك الماء ينساب عليه ؛ لينظف ما تفصّد منه .. عرقاً وغير العرق .. إلا أنّه أوهم نفسه بعدم النظافة لكنّ الحقيقة كانت عدم الراحة .. عاود الكرّة مرّةً أخرى .. ما لديه في مخيّلته عن الستّ "سنية" أسطولاً من الصّور ، والأوضاع ، والحكايات لا يكفيها مرة واحدة .

خرج من الحمّام بعد أن تطهّر .. دخل غرفته .. مدّ سجادة الصّلاة أمامه .. وقف وكبّر محرماً داخلاً في الصلاة .. بعد قيامه من الركعة الثّانية أحس بشيء يترًّ منه .. صمت عن التلاوة .. تيّقن من الأمر .. سلّم واقفاً .. خرج من غرفته ، ودخل على أبيه الذي كان جالساً على سجّادة الصّلاة .. أنهى صلاته لكنه لا يزال يسبّح على مسبحته .. اقترب منه ، وجلس إلى جواره .. لم يحرك "راضي" ساكناً حتى أنهى كامل تسبيحاته ، وختم صلاته .. شعر "مصطفى" أنه لازال يترف ، فترك الأمر حتى ينتهي وحده ..

- " إيه الدوشة اللي كانت تحت دي ؟"

- " حرامي .. كان في شقة "سنية" (ورك الفرخة)."

- " إنت هتقول عليها زيّ الناس .. يا ابني ده اسمه قذف محصنات ."

- " دي محصنة دي !! ربنا يولّع فيها بجاز وسخ .. نفسي أشوفها محروقة ، والنار بتاكل في جسمها ."

- " اتقّ الله يا ابني .. حرام عليك كده ."

- " حرام إيه يا بابا .. دي مومس زانية ."

- " أعوذ بالله .. ممكن نغيّر الموضوع .. إنت صلّيت الظهر؟"

- " الحمد لله .. بابا كان فيه موضـــوع كـــدة .. عـــايز أكلّمك فيه ."

- " عايز تتقدّم ل-"داليا" .. مش كده ؟"

- " وعرفت ازاي ؟ !"

- " يا ابني الشعر ده شاب من خضايض الأيام ليّا ، واللّي شوفته فيها .. وانت وحيدي .. مش عايزني أفهمك ، وأعرف حالك من غير كلام .!!"

- " طيب وانت إيه رأيك ؟"

- " شوف يا ابني .. وضعك الحالي ما يسمحش انّك تفتح بيت .. ولا حتّى تتقدّم للناس عشان تخطب بنتهم ."

- " بس .. همّا موافقين وراضيين ، إنشالله حتى بـــدبلتين بس ، لغاية ما ربنا يفرجها ."

- " إنت متأكّد من الكلام ده ؟"

- " طبعًا ."

- " والله .. إن كانت المسألة دبلتين تبقى سهلة .. وكمان الشقّة أهي موجودة .. وأكيد ربنا هيغيّر الأحوال ."

- " يعني آخد من "داليا" معاد نتابل فيه أبوها ؟"

- " توكّل على الله .. ألف مبروك يا حبيبي ."

ترك مصطفى والده ، وانصرف .. قام "راضي" من جلسته، وجلس على الأريكة .. نظر من النّافذة المفتوحة ؛ ليجد "سنيّة" جارته في المترل المواجه لمترله .. تلاقت عيناه مع عينيها، ولمحت لبرهة هدبها :

- " إزيك يا أبو مصطفى .. شفت اللي حصل ؟!."

- " حصل كلّ خير إن شاء الله .. قدّر ولطف .. بعد إذنك ."

- " إتفضل يا اخويا ."

أغلق "راضي" النّافذة .. زفر زفرة هادئة ، وهو يجلس على الأريكة .. ابتسم ابتسامةً ماكرة ، وهو يحادث نفسه التي لا زال لها بقية من رغبة في مغيبها دون أن يُسمع أذنيه :

- "آه يا "أمّ إسلام" .. لولا سيرتك وسمعتك .. كنت ما خلتش حد شاف طرفك .. الله يسامحك فكرتيني باللّي عايز أنساه .. هتخلّيني أقوم أتوضا تاني !.

قام "راضي" خارجاً من غرفته متّجهاً إلى الحمّام .. سمع صوت المياه المنبعثة من الدّش .. عاد أدراجه داخلاً غرفته مبتسماً على تلك النتيجة المنطقية التي عليها ابنه .. فحولة

الشّباب ، ورغباته المتدفّقة ، وحرارة الجو الملتهبة ، وتأثير "سنية" المتأجّج أسباب مؤكّدة للاستحمام أكثر من مرة .

الفصل السابع

مُسْتَوْدَع الأسرار

- ١ -

في تلك البقعة التي اتخذها مهداً لإحباطه ، ومستقراً لانكساراته .. جوار النيل وأمام مبنى الإذاعة والتليفزيون .. المراكب تمخر بأنوارها المتلألئة ، وركّابها المتنزهّين صفحة سبيلها المائي ..

السّيارات على نهر طريقها البري تعدو بمصابيحها البارقة بمن فيها خلف أحزمة مقاعدهم الآسرة لهم قسراً بفضل ذلك النّظام العشوائي الانتقائي في تطبيق القانون على من يرى ، وتركه لمن يهوى .. نسمات هواء الصّيف المحمّلة بعبير حبّ الحياة ، والإقبال عليها تؤانس الغادي والرائح .. شبابٌ بأعناق مكبلة بالسّلاسل الشّبابية على اختلاف معادنها .. ذهبيةً ، أو فضيّةً ، أو نحاسيّة ، أو حديديّة .. القميص المفتوح ، والبنطال السّاقط، والتشبه الصارخ بالنّساء والنداء بالصفير .. لا ينقصهم سوى أن يبعث فيهم (لوطٌ) من جديد .. فتياتٌ كاسيات الرأس يطلقن على أنفسهن كذباً وزورا "محجبات" حجاباً متبرّجاً ما أنزل الله به من سلطان .. فتياتٌ تفعل كلّ شيء ، وأي شيء بعد أن تتغاطى غطاء الرأس مخدراً لضميرها بأنها فعلت ما أمرها الله به ، ويرضيه عنها ليدخلن مع "سنية" ، والمعلم "حلي" ذات الخندق .

وقف "مصطفى" مرتكناً بساعديه على الحاجز الأسمنتيّ الذي يفصل بين السّباج الحديدي الممتد على طول الكورنيش .. كأنّه مصنوع خشية أن يغادر ذلك العتيق الرابض منذ الأزل مكانه ، فأحاطوه بشاطئين إضافيين ؛ ليكبلا ضفتيه بهما .. شابك أصابع كفيه أمامه .. نكص رأسه كأنّه يريد أن يدفنها بين عاتقيه .. أتى "راضي" ووقف إلى جواره ، وقد أمسك كوبين بهما "حمص الشّام" .. نظر إليه بإشفاق لكنه غالب مرارة حزن ولده ، والتي تجرّعها هو في حلقه ؛ ليدفعه نحو ضياء الأمل الخافت :

– " الكوباية دي هتخليك تمام ."

كأنّه لم يسمعه .. استقام "مصطفى" من انحناءته ، وهو لازال ناظراً أمامه إلى لا شيء :

– " أنا آسف جداً يا بابا .. ما كنتش أحب إن أحطّك في الوضع المحرج ده .. بس أنا ما كنتش أعرف إن أبوها هيرفض لمجرّد إن مرتبها أضعاف أضعاف مرتبي ."

– "حقّه يا ابني .. عايز يتطمن على بنته .. واللا انت كنت ناوي تعيش على فلوسها ؟!"

– " إنت بتقول إيه يا بابا !! .. طبعاً لأه .. بس أنا صعبان عليّا إحراجك ."

وهو يتظاهر بالنّظر في الكوب الذي يمسكه ، والتقليب فيه .. كأن ما يهمه في المقام الأول ما يحويه ذلك الكوب :

- " يا سيدي .. لا إحراج ولا حاجة .. هو حطّنا قدّام مرايتنا .. إحنا طلبنا إيد بنته ، وهو ما رفضش زي انت ما بتقول .. لكن ظروفنا هي اللي ما سمحتش .. يبقى العيب مش في اللّي حط المرايا قدامنا .. العيب في صورتنا اللّي ظهرت فيها، وزعلتك لما شفتها .. ولو عايز نصيحتي .. الموضوع ده طلّعه من دماغك .. على الأقل لغاية ما تشتغل في حته تقبض منها زي "داليا" ."

- " نفسي آجي هنا ولو مرّة واحدة ، وأنا راكب الدنيا .. بدل ما هي دايماً راكباني كده ."

- " بكرة تتعدل .. سيبها لله يا ابني ."

***

- ٢ -

أطلّت سنية من شرفة منزلها منحنيةً على جدارها المطلّ على الزّقاق بجلباب أحمر قاني صدره مفتوح .. لم تكن ترتدي أبدًا ما يستر ملتقى نهديها صعوداً حتى جيدها الممتلئ كعامود من المرمر .. أراحتهما على جدار الشرفة ، فأتعبته بطراوتهما ودفئهما .. إتباعًا لآداب وتقاليد غير متّبعة في العرف الشعبي العشوائي وضعت ساعديها تحتهما مما يبرزهما أكثر .. حاولت غير جادة إخفاء ذلك البروز اللحمي لهما بكفيها .. ساقها الأيمن مستقيم ، والأيسر مرتخي مما يساعد على الاستدارة الخلفية لإليتها اليمنى .. هنيهة ، وتقوم بالتبديل بين ساقيها ؛ لتأخذ الإلية اليسرى نصيبها هي الأخرى من الاستدارة .

طال انتظارها للمعلم "حلي" .. كل ما كان يعجبها فيه : "فحولته" ، و "قدرته على إنهاء الأمر كما ينبغي أن يكون" .. إضافةً إلى ذلك الموقف الذي وقفه معها حين سمعت نبأ موت ولدها ، والذي كان بداية لقائهما يوم أربعين "إسلام" ، بعد أن انفضّ المعزين من العزاء المنصوب لانتصاب آخر بعد أن خلت الشقّة عليهما .. ما إن تذكرت تلك اللحظات حتى اشتعلت نار الرّغبة في جسدها الملتهب ، واستبدّ بها الشبق في وقفتها ، - وهي متطلعة إليه - ، وهو جالس وسط دجاجاته

الأسيرة في أقفاصها .. أسرٌ أهونُ بكثيرٍ من مستقبلٍ محتوم يبدأ بمرور الشفرة الحادة على الحلقوم ، وينتهي بمواسير الصّرف الصحي مروراً بالنّتف ، والتنظيف ، والطّهي ، والإدخال أكلاً، وإخراج ما تبقّى من فضلات في مكانه المعلوم .

الساعة تجاوزت الحادية عشر مساءاً ، والمعلم "حلي" في جلسته كتنينٍ نضبت ناره ، فلم يعد يخرج إلا دخان تلك التعميرة الموضوعة أمامه .. جفونه بدأت في التثاقل .. رائحة الحشيش امتطت الفضاء حتى وصلت إلى أنف "سنيّة" .. بدأ القلق يساورها :

- "يخرب بيته .. هو ونّونِ ، ونسى واللّا إيه !! .. وحياة أمه .. لأ .. وحياة مقاصيصي دول .. واللا يبقوا على دكر .. ما يشوف منّي دوفر .. ده أنا كنت ....."

فجأة ، وبدون مقدّمات قطع حديثها النفسي : "مشاهدتها لأمّ حنفي (زوجة المعلم حلي) تقف أمامه وتحادثه بدلال بصوت خافت" ، ثمّ اقتربت منه ، وهمست في أذنه بعد أن امتطى نهديها كتفه .. سرّته بشيء جعلته يقف بدون مقدمات، ويغلق المحل في عجل ، ويمسكها من وسطها مغادراً .. سار بها في اتجاه منزل "سنية" .. كان واضحاً بجلاء أنه وصل لمرحلة من الخدر ، والتشويش جعلته لا يفرق بين "أمّ حنفي" ، "وسنية" .. رغم أن الفرق بينهما فرق الليل من النهار .

- "لأ .. مش من هنا يا سيد المعلّمين ."

قالتها "أمّ حنفي" ، وهي تنظر لـ-"سنية" في وقفتها الجافـة بتشفّي وشماتة آخذة بعلها ، ومبتعدة به عن ناظريها .. كـان الكل يعلم أنّ "سنية" صارت من ممتلكاته بما فيهم زوجتـه "أمّ حنفي" التي تيقّنت أنّ المواجهة معه كزوجة ، والتعامـل مـن منطلق الحق والعدل لن يفيد ، ولن ينفع .

اختارت سياسة الأمر الواقع ، والتعامل بها مـع جيـوش "سنية" الفتاكة .. تعاملت مع دلالها النّاعم بحذف الكبرياء من قاموس تعاملها مع زوجها .. وأنوثتها الطّاغية طغيان الماء بتلبية كل ما يريد منها دون استفسارٍ ، أو استنكار لعلّهـا بـذلك تفسد لياليها معه عسى أن يصلُ بها ذلـك إلى التحريـر مـن احتلال تلك العلاقة الآثمة الجاسمة على أنفاس حياتها الزوجية .

انقلبت الدّماء في عروق "سنية" لحممٍ من بركانٍ متفجّر .. تسمّرت مكانها .. ماذا تفعل ؟ .. أحـسّت بطـنين يـصمّ أذنيها .. وقفت من انحناءتها ، بعد أن كادت الأرض تميد مـن تحت قدميها .. انقلب الأمر من رغبةٍ إلى كرامـة .. نظـرت بعينيها ، وأمعنت نظر الأنثى بداخلها ؛ لتخترق ذلك الـداخل إلى الزّقاق .. ما إن شاهدته حتى دخلت مسرعة من الشرفة .. بعد أن أقسمت أن تكون ليلتها معه عقاباً للمعلم "حلّي" على فعلته ، وتفضيله زوجته عليها .

دخل "مصطفى" إلى الزّقاق عائداً من عمله بمكتب الأستاذ "سيد زعتر المحامي" .. يسير بتؤدة واضعاً يده في جيبي بنطاله غير عابئ بأيّ شيء .. الجو حار بدرجة مستفزّة ، والرّطوبة لزجة بدرجة مثيرة ، ونسمات الهواء يبدو أنها تبحث في الحصول على عقد عمل خارج البلاد .. سبحت قدماه على تراب الأرض كما سبحت الأفكار على ماء عقله في هدوء رتيب .. العمل غير مستقر من مكتب إلى آخر بدون راتب مجد .. بدون تقدّم .. بدون خبرة .. لا فرق .. المستقبل ظلامه مدلهم وصوره مشوشة ، وغير واضحة المعالم في تلك العتمة التي لا تنقشع بعد أن انكسر مصباح أمله .. العاطفة انطفأت جذوتها في مستنقع المادة العطن .

فجأة .. تحلق صوت "سنية "طوق نجاة أخرجه مما هو فيه .. جاء صوتها خافتاً ، لكنه واثق ثقة الثّابت على دعائم صلبة من القدرة ، وعدم الخشية .. نظر يساره فإذا بها تقف داخل عتبة منزلها .. ترى من يسير بالزّقاق ، ولا يراها إلا من يدقّق بناظريه في المدخل كشيطان تكوّم في جنح الظلام منتظرًا من يركبه من الأنس ، ويظل يوسوس له طول الليل .

أشارت إليه .. اضطرب قليلاً .. تردّد .. لكنّه تقدّم نحوها .. استعمرت حواسه بتأثيرها ، وسلبت إرادته تحت قوة وهيمنة نظراتها الثابتة .. كانت "سنية" تعلم رغبة "مصطفى"

فيها .. لم يكن أمراً صعباً عليها كامرأة تملك رادار الأنثى بوجه عام ، وتعمل في مهنة أكسبتها بوجه خاص أن تعلم ما بداخله لها ، وتستطيع عقد سحر أسود له لا فكاك منه .. كلّ ما عليه هو تنفيذ تعليمات وأوامر خدم ذلك السحر .. سحر أنوثتها ، وفتنها ، وإثارتها ، ودلالها .. ما إن دلف من باب السكة حتى أغلقته خلفه :

- " خير يا أمّ إسلام !!؟"

كان يناديها دائماً بتلك الكنية دون غيره من جيرانها .. لا يعلم لماذا ؟ .. محتمل أن تكون تجربة فاشلة لإثبات أنّه مختلف عن الآخرين ، ولو في منادالها التي تكاد تكون نادرة .. نظرت إليه قليلاً ثمّ قالت :

- " عايزاك في استشارة قانونية يا "مصطفى" .. وحد الأتعاب اللّي ترضيك ."

تسمّر مكانه .. لم يجبها بشيء .. نظر إليها ولم يتكلّم .. قرأت إجابته في عينيه .. ماذا يفعل الهاوي المبتدئ في عالم المحترفين .. ابتسمت ابتسامة المنتصر .. قبضت على كفّه الأيسر الذي تدنّت درجات الحرارة فيه لمستويات تقارب الصفر بكفّها الأيمن الدافئ الناعم .. أمسك بكفّها كأنه يستمد منه دفء الحياة .. أخذته وصعدت به إلى أعلى .

كان بيتها عبارة عن دورٍ أرضيّ به شقة مغلقة كانت تنوي أن تكون سكن فقيدها ، والتي أعلنت صراحة أنه لن يسكن غيره في تلك الشقّة ، إضافة إلى "بلاوي" الجيران ومشاكلهم ..

أمّا الطابق العلوي به شقتها التي تسكنها ، وفوقها سطح به قفص خشبي بمساحة البيت معلوم لأهل الزّقاق أنها تربّي فيه كافّة أنواع الطيور .. وصلا إلى شقتها المغلقة ، والمظلمة تماماً .. لم تتوقف عندها بل أكملت به الصعود إلى الأعلى حتى وصلت به إلى السطح .. لم تكن تريد أن يعلم أحد من الزّقاق أنها في المنزل .. توقفا عند باب يفصل السطح عن نهاية السلم .. دست كفها الأيمن تتلمس نهدها الأيسر بعد أن قبضت عليه بكفّها الآخر .. تمنّى أن يشترك في حملة القبض التي أمامه ، لكنه آثر السلامة .. خرجت بمفتاح صغير ، ولجته في فرج الكالون ، فانفتح .. دخلا وأغلقت الباب من خلفها .. أشارت إلى ضوءٍ خافت ينبعث من داخل القفص الخشبي ، فاتجه نحوه وهي خلفه .. دخل القفص فإذا به حجرة بها مرتبة عليها وسادتين .. إلى يسارها مذياع يفوح منه صوت "أمّ كلثوم" الشجيّ بصوت خافت عليل ، وإلى يمينها صينية حوت بعض أطايب الطعام .. قوة الرّغبة لم تشعرها بذلك المجهود الذي قامت به لتكون مفاجأة للمعلم "حلي" .. لم يكن لذلك القفص سقف بل بعض أعواد الخوص الجاف .. وقفت خلفه تماماً .. ضغطت بتضاريسها البارزة على ظهره المرتجف بلين .. أمسكت كفيه بكفّيها دون أن يلتفت إليها :

- " إيه ده .. إيدك ساقعة كده ليه ؟!!"

التفت إليها ليصير مشرفاً على تلك القلعتين بمدفعيهما المصوّبين نحوه .. كانت أقصر منه قرابة العشرين سنتيمتر .. شعر بأنّ الأرض تميد من تحت قدميه بعد أن أُلقي بحلقه في صحراء "كلهاري".. تماسك بآخر ما يملك من رباطة جأش ، وثبات تمنّى ألا يدوم :

- "إيه هيا الاستشارة اللّي كنتي عايزاني فيها ؟"

- " إنت لسة ما عرفتش يعني ؟!"

قالتها،وهي ناظرة إلي عينيه من خلال ذلك الضّوء الخافت نظرة من عقدت العزم على إطلاق مدافعها على حصون بكارته الواهية .. المتعطّشة لذلك الاستعمار الكاسح ، والمباركة لهذا الاحتلال متمنية له الدوام .. رفعت يدها اليمنى ، وأحكمت راحتها خلف رأسه .. حنت رأسه لتلامس شفتيها شفتيه ؛ ليبدأ الاقتحام .

قرعت طبول الحرب التي استُخدمت فيها كلّ الأسلحة ، وكافّة التشكيلات والأوضاع .. مرت به على كافة بيوت الهوى .. أسقته من كأس كلّ البغايا اللاتي لم يعرفهن قط .. نزفت هي الأخرى ، وسعدت أيّما سعادة بهذا الترف ، فلم تكن معتادة عليه .. لقد تخطّى الأمر رتابة العمل ، وانفعال الانتقام ، إلى حلاوة النشوة .

وضعت الحرب أوزارها بعد خمس هجمات ناجحة منه بخلاف الاستكشاف الأوّل سريع القذف أمامَ خطوط العدوّ ، وثلاثة منها .. حاول أن يشنّ هجوماً سادساً مباغتاً ،لكنّها لم تمكّنه منه .. أرادت أن تسرقه ، فسرقها .. أرادت أن تأكله ، فابتلعها .. أرادت أن تنازله ، فسحقها .

رقدا على ظهريهما ناظرين إلى تلك السماء المحيطة بالأرض، وقد تجرّدت من نجومها وقمرها كما تجردا من ملابسهما تماماً بلا كلمات .. أنهت "أمّ كلثوم" وصلتيها بعد أن انتهوا من وصلاقم .. لم يُسمع منهما إلا صوت أنفاسٍ لاهثة .. انقلب على شقّه الأيسر ، وانقلبت على شقّها الأيمن ، وراحا في سباتٍ عميق دون أن ينطقا بكلمة واحدة .

***

- "قوم بقى يا "سيد الرّجالة" .. الساعة بقت أربعة العصر ."

أفاق "مصطفى" من سباته الذي كان فيه على شفتيّ "سنية" الدافئتين ، وهي تلثم شفتيه بعذوبة الماء الفاتر لتوقظه .. جلس من رقدته .. فرك عينيه في طفولةٍ بريئة .. نظر لـ"سنية " التي ارتدت قميص نوم أبيض كعروسٍ في صباح زفافها .. خلعه من عليها .. دخل بها ؛ ليشهد النهار عليهما بعد أن أشهد الليل .. لم ينتهيا حتى كلّت عيني النهار من الرؤية ، فأغمضتها ليحلّ الظلام .

نزل إلى الحمام .. بعد أن علم أن الجميع لا يعلم بوجود أحد في المترل .. فتح المياه لتنساب على جسده في فرحةٍ عارمة بدخوله عالم الرجال ذوي التجارب والعلاقات .. وأيّ علاقات .. انفرجت شفتاه عن ابتسامةٍ أوسع ما تكون عندما تذكّر ما هو عليه الآن ، وما كان عليه في الماضي .. أيعقل أن تتبدّل الأحوال هكذا ؟ .. أنهى استحمامه .. اغتسل .. توضّأ .. خرج من الحمّام ؛ ليرتدي ملابسه التي وضعتها له "سنية" أمام الباب .. تناول سجادة الصلاة !!!.. صلّى باطمئنانٍ لم يعرفه من قبل !!!!!

أنهى صلاة العصر .. تذكر أنه لم يستغفر الله .. مع أوّل سجدة في صلاة "المغرب". بدأ الاستغفار .. شيئاً ما بداخله كان يلهمه أن الله سيغفر له .. أكثر من هذا .. أن الله غير غاضب عليه !! .

أنهى صلاته .. تنبّه أنه رغم قيامه وسجوده ، لم يتز منه شيئاً .. ابتسم وصعد إلى "سنيّة" .. وجدها جالسة في انتظاره .. أطعمته بيدها بحنان الأمّ ، ومودّة الزّوجة ، وشوق العاشقة .. بين الحين والحين كان يقبّلها ، وتقبّله بناءً على طلبه .. تناول دجاجتين من دجاج المعلم "حلي" .. نظرت إلى عينيه بعمقٍ ، وكأنها قفزت فيهما ؛ لتسبح في أنهاره الداخلية :

- " تصدّق بالله ."

- " لا إله إلا الله ."

- " أنا طلعت مرة سكة .. آل وأنا اللّي كنت فاكرة نفسي يا ما هنا ويا ما هناك ."

- " ليه بتقولي كده ؟!"

- " عشان عمري ما شفت دكر ناشف ، ومليان زيّك كده .. وف- نفس ذات الوقت .. طيب وحنين وهو في عز الأباحة ."

ضحك من قولها ضحكة تواضع المغرور .. قطع ضحكته ، كأنما تذكّر شيئاً هاماً :

- " فهّميني بقى .. إيه ده .. وليه حصل ؟"

أخبرته ، وليتها لم تخبره .. أطبقت السماء على رأسه عندما علم .. هدمت جدران الدنيا عليه لّما عرف .. إذن هناك علاقة بالفعل بين "سنية" ، و "حلّي" .. ليست إشاعات .. كان داخله يقيناً بأنّ "سنية" لا تجامع من "بالزّقاق" حتى لو كان المعلم "حلّي" .. وأنّ ما يقال محض استنتاجات .. لم تكن مجرد أوهام لأوضاع يتخيّلها في الحمام .. صدق المثل القائل : "ليس هناك دخان بلا نار" .. يا ويله لقد تعدّى على حرمة المعلم "حلي" .. لقد أخذ مكانه في تلك الليلة بعد أن تركها ، وذهب مع زوجته .. ماذا سيفعل به بعد أن أكل دجاجه ، ونام على فراشه ، ووطأ حرمته المحرّمة .. اسودّت الدنيا في عينيه ، و لم تفلح كل وعودها بأن الله وحده هو الشاهد على ما حدث بينهما ، ولن يكون هناك غيره .. أقسمت بأغلظ الأيمان ، وأوثقها وأشدّها عليها :

- " والمصحف .. ورحمة إسلام .. ومقام الست الطاهرة .. والعدرا ".

علم "مصطفى" أنه إن آجلاً أو عاجلاً لا بد من المواجهة المحتومة بينه وبين المعلم "حلّي" ، والتي يعلم سلفاً نتائجها ، لكنه لا يستطيع أن يتخيّلها .

نزل على درجات السُلَّم حتى وصل إلى بــاب الـسكة .. خرج منه بهدوء .. بمجرد أن لامست قدماه أرض الزّقاق انطلق مسرعاً خارجه إلى منزل "محيي" ؛ ليبيت عنده تلـك الليلـة ويكون صادقاً في قسمه ، إذا ما عاد إلى والده في اليوم التالي ، وأقسم له أنه كان عند "محيي" ، لم يكن أبداً حالفاً كذبا !!.

رفرفت أجنحة الظلام تاركة صفحة السّماء لضياء النهار .. قضى "مصطفى" اليوم كلّه مع "محيي" ما بين بيته ، ومحلّـه ، وشاركهما "فوزي" الصحبة بعد أن عاد من عملـه .. قـصّ عليهما ما حدث بالتفصيل وهما يستمعان في ذهول مما يتهادى إلى مسامعهما .. كان الفخر يملؤه ، وهو يتكلم ويتباهى بكلّ ما صنعه .. كل ما تخيّله وحلم به حققه على أرض الواقع .. لم يخفيا الحقد والغيرة والحسد مما كان فيه ، وتمنّيا أن يكونا محله ، ولكنه النصيب .

عاد مع الليل ، وقد حط في حِله .. نصب خيمته من جديد بلا مللٍ من التكرار .. أضاء مصباح القمـر ظلامـه ، وقـد ساعدته النجوم في ذلك .. انتظـر "مـصطفى" حـتى هـدأ "الزّقاق"، وعمّ الليل .. وصل إلى عتبة باب الـسكة لبيتـه .. دخل بساقه اليمنى وقبل أن يتبعها باليسرى سمع صوت ينـادي عليه .. تجمّد الدم في عروقه .. تيبّست أوصـاله .. ثبـت في

مكانه .. لم يلتفت .. تيقن من صاحب الصوت .. نعم إنـــه هو .. صوت المعلم "حلّي" .. نبرته العالية الواثقة .. ليس هذا فحسب ، إنها أقدامه آتيةً نحوه في ثبات مهيب .

هل يقابل قدره بشجاعة مواجهاً ما خطّه القدر له بـــصدر مفتوح ، وعينين ثابتتين .. لا .. لا يستطيع .. فليأت المعلـــم "حلّي" ، ولينه ما هو قادم له .. وقف "حلي" خلفه تمامـــاً .. تذكر ذات الوقفة ل-"سنية" بالأمس .. هل ســيأخذ حقـــه بذات الطريقة !! .. المعلم "حلي" لا يُستبعد عليـــه شـــيء .. هوت على كتفه الأيسر مطرقة بشرية يطلقون عليها يد المعلـــم "حلي" :

– " إيه يا راجل ما حدش عاد بيشوفك ليه ؟"

إذن لا بد له من الالتفات لمواجهة قدره .. على الأقـــل ؛ ليرد عليه السؤال من قبيل الأدب المُجبر عليه ، وتسليم الأمـــر لله .. التفت "مصطفى" ، وركبتيه لا تقويان على حمله بسبب ما فعله بالأمس ، وخوفاً مما هو أمامه اليوم .. حـــاول رســـم ابتسامة بلهاء شاحبة على قـــسمات وجهـــه ، فانزلقـــت و لم تثبت :

– " أهلاً .. ازيّك يا معلم "حلّي" ."

ابتسم له المعلم "حلّي" في مودةٍ أكسبته شيئاً من الـــشجاعة لمواصلة الحديث :

- "إنت اللي ازيك .. وأخبارك إيه ؟"

- "الحمد لله .. خير يا معلم .. أأمر. "

- "همّا كلمتين وردّ غطاهم .. أنا عارف انك عسارف .. والحارة كلها عارفة الكار بتاعي .. بس وشرفك أنا ما غيّرت من الحشيش لغاية دلوقتي .. وعمري ما اشتغلت في المدعوؤة دي اللّي اسمها البودرة ."

أشرقت شمس التفاؤل على نفسه ، بعد أن فارقته غيوم الخوف والشكّ من حديث المعلم "حلّي" ولقائه :

- " جميل يا معلم .. أنا دخلي إيه في الكلام ده ؟"

- " المحامي اللّي معايا طمع ، وما عادش مكفيه اللّي بيلهفه منّي كل طلعة شهر .. آل إيه عايز ياخد نسبة من المكسب .. الواطي بعد ما ركب الزلموكة بيتنطط عليّا .. المحامي العـرّة - ولا مؤاخذة يعني - اللّي كان بيترل المحكمة من غير شراب .. المهم أنا قلت إنت ابن حتتي واحنا ستر وغطى على بعض .. هاديلك باكو في الشهر لزوم شغل الأقسام والنّيابات ، وكل قضية بأتعابها .. إيه رأيك ؟"

لم يعقل "مصطفى" شيئاً مما سمعه تواً .. رفع حاجبيه وفتح فاه .. أسند براحتيه على كتفي المعلم "حلّي" :

- " إنت بتقول إيه ؟!!!"

ابتسم المعلم "حلّي" ، وهو يمسك بساعدي "مــصطفى" ، حتّى لا يقع :

- " امسك نفسك أمال .. خد وقتك وفكّر .. وابقى رد عليّا .. ومتنساش انت مش هتشتغل في المخـــدرات لا سمـــح الله .. أنت هتشتغل في كارك . يعني هتبقى محامي ليس إلا .. والنبي انت ابن حلال وتستاهل كل خير ."

***

- ٤ -

وقف "مصطفى" سانداً ظهره على الحائط .. أمامه وقف "محيي" ذات الوقفة ، وقد ثني ركبته اليمنى ليطبع بقدمها على الحائط الواقف أمامه .. الإضاءة صفراء عليلة جداً .. جدران ملوّثة بدماء لازالت تئنّ من الظّلم الواقع على أصحابها ، وشحوم سوداء كتلك الليلة .. لا سبيل لمعرفة لماذا جاءت في ذلك المكان؟.. الأرض قذرة .. أكياس وأوراق،وقطط وصراصير ، وقوارض وزواحف .. هنا وهناك .

إحدى القطط تسير واثقة الخطوة تمشي ملكاً .. وقفت بينهما ناظرة بامتهان واستعلاء ، ثم تركتهما ومضت لما هي ذاهبة له .. أصوات صراصير الليل تصل إليهما بقوة معلنة عن تلك الحفلة المقامة على كلّ أنواع القمامة التي تحيط بهما .

كلام المعلم "حلّي" يطن في أذنيه .. تداخل معه صوت مفتاح شقته ، وهو يديره في الباب ليدخل ؛ ليعلن سعال "راضي" القوي ، والمستمر إنهاء هذا الطنين ، وهذا التداخل والبقاء منفرداً في أذن "مصطفى" .. يناديه بصوت ممزوج ، وسعاله الشّديد يشقّ صدره ، ويشرخ صمت الليل :

- " الحقني يا ابني مش قادر آخد نَفَسي .. حاجة طابقة على صدري ، حتاخد روحي ."

هرع "مصطفى" في طلب "محيي" ؛ لينقلا "راضي" إلى ذلك المستشفى العام .. دخلا يحملهما .. سارا في ممرٍّ طويـــلٍ بـــلا رقيب أو مجيب .. لم يجدوا مـــن يـــدلّهم ، أو يرشـــدهم إلام المسيرُ؟ ، وأين الطريق ؟ .. صاح "مصطفى" :

– " إنتم يا ناس يا اللّي هنا .. حد يرد علينا ."

بعد عدة دقائق خرج طبيب من حجرة ، بعـــد أن أضـــاء نورها بآخر الممر ، وهو يرفع ياي بنطاله الأمامي كأنه خارج من حمام بعد أن قضى حاجته .. تقدّم نحوهما ببطءٍ ، وتكاسلٍ مستفزّ .. بعد أن أشرف على الوصول إليهما خرجتْ من ذات الحجرة التي قضى فيها حاجته ممرّضة .. ســـارت في عكـــس اتجاههم .. عدلت هندامها ، وجذبت طرف جونلتها للأسفل بعد أن تم رفعها للأعلى بفعل رفع ســـاقيها وانفراجهمـــا .. أعادت ضبط شارة ملائكة الرحمة على شعرها المبعثر !! .

وقف أمامهما الطبيب ناظراً إليهما في استياء بالغ ،كمـــن أقاموه من على زوجته ، وهو في أوج نشوته :

– " أيوه .. أيوه .. إيه انت في زريبة .. وطّي صـــوتك .. عايز إيه ؟"

نظر "مصطفى" إليه في تعجّب ، واندهاش من ذلك الواقـــع المغلوط الذي أراد فهمه ، لكن الوقت لم يسعفه على الفهـــم والإدراك :

– " عايز إيه ؟ !! أبويا بيموت ."

- " ما حدّش بيموت ناقص عمر يا أخويا .. لقّحه على الترولّي ده لغاية ما حد يشوفه ."

قالها باستهانة ، وكأنّه يتحدث عن دجاجة من دجاج المعلم "حلّي" .. انفجر "مصطفى" فيه بعد أن طفح به الكيل من عدم مراعاة الحالة المرضية ل-"راضي" إضافة إلى ذلك المرور الذي كان يقوم به مع تلك الممرضة ، وحقنته العضلية لها بين فخذيها .

- "ألقحه !! ما تتكلم كويس يا دكتور ."

- "وسيادتك بقى اللي ح تعرفني أتكلّم ازّاي ؟!"

تدخل "محيي" محاولاً التلطيف من تلك الأجواء المشتعلة :

- " اهدا يا "مصطفى" مش كده .. "

- " يعني ما انتش شايف هو بيتكلم ازّاي ؟"

أشار الطّبيب إلى اثنين من العمال .. وقفا أمامه في لمح البصر ، وكأنهم بعثا في مكانهما .. بلهجة آمرة :

- " خدوا الحالة دي على جوه .. وطلعوا الاتنين دول برة ."

قادا العاملان "راضي" إلى قدره ، وخلفهم الطبيب ، وتركوهما ينتظران عسى أن يسمعا ما يطمئنهما عليه .. لحظات وعاد ذات الطبيب ناظراً لهما باندهاش بالغ :

- " انتم لسّه هنا .. أنا مش قلت ليكوا تمشوا ."

نظر "محيي" إلى الطّبيب مبتسمًا في محاولةٍ لتجرّع غضبه حتى يستطيع السّيطرة على ذلك الموقف السخيفً ، وهذا الاستعلاء المستفزّ والوصول به إلى نهاية مرضية للجميع :

- " ماشي .. ماشي .. احنا ح نطلع برة بس كنا عـــايزين نعرف عمّ "راضي" عنده إيه ؟ ."

- " انت دكتور ؟"

قالها الطبيب بصلف وغرور لا حد لهما .. تجرعها "محيـــي" على مضضٍ محاولاً التفاهم معه :

- " لأه .. بس ..."

قبل أن يكمل قاطعه الطبيب بذات الاستعلاء التي تسير بـــه القطط في تلك المستشفى :

- "يبقى عايز تعرف عنده إيه ليه ؟ .. اتفضّل برّة .. وبكرة تيجوا في معاد الزّيارة ."

فقد "محيي" الأمل في التواصل مع ذلك الطبيب بذات يقينه في إمكانية التحدث مع صرصار في تلك المستشفى عن قـــضية الشرق الأوسط الجديد :

- " يا اللّا يا "مصطفى" الكلام ما متّوش فايدة ."

- " أنا مش حسيب أبويا ."

- " يا اللّا يا "مصطفى" معايا .. بلاش بهدلة لينا وليه ."

- ٥ -

أشرقت الشّمس واستقرّت في ضحاها .. دخل "مصطفى"، وبرفقته "محيي" ، و "فوزي" مسرعين إلى مكتب الاستعلامات بالمستشفى العام .. تقدّم "فوزي" إلى الموظّف الجالس في ذلك المكتب خلف لوحٍ من الزّجاج مفتوح من الأسفل على شكل نصف دائرة بيضاوية ؛ لتلوى الأعناق وتُذَلّ الرّقاب حتى يصل صوت أصحابها إلى مسامع صمّاء لا تسمع بأذنيهــا ، وإنّمــا بأناملها التي ترهف الإنصات إلى تلك الأوراق الملوّنة المزركشة ذوات الأرقام في زواياها .

جلس الموظّف الغير موظّف كغيره ممن ينتــشرون بطــول مصالح الدولة ، وعرضها الخالية من أي مصلحة لهؤلاء التعساء المطلق عليهم "مواطنون" وهيئاتهــا الغــير مهيّــأة لمعاملتــهم كأصحاب وطن في وطنهم .. أمامه ورقة انتزعت من جريــدة كتب عنوان في صدرها بالبنط الكبير { **أعمال هدم المــسجد الأقصى ، وتهويده تسير بشكل ممنهج** } وضعت على تلــك الورقة ثلاثة ساندويتشات : اثنان فول ، وواحــد طعميــة .. والرابع كان يلتهمه الموظف في نهم المحتلّ ، وشراسة المغتصب .

- " في واحد دخل عندكم إمبارح باللّيل اسمه "راضي عبد المعز" .. نلاقيه فين لو سمحت ؟"

أخفى الموظّف باقي السندوتش في كهفٍ فيه ولاكه فيه .. أزاح الورقة المحمّلة بباقي الساندويتشات من على دفترٍ أمامه .. بحث قليلاً ، وهو يقبض على الساندويتش التالي كثائرٍ أخـــيراً قبض على مقاليد الحكم في بلاده .. دون أن يرفع ناظريه لـ- "فوزي" :

- "اتفضلوا الأول على الحسابات .. هما ح يفهموكم على كلّ حاجة ."

- "الحسابات .. حسابات إيه ؟"

قالها "مصطفى" باندهاش تجاوز به حد الاستياء .. التفـــت إليه "فوزي" مشيرًا إليه بالصّبر حتى ينتهي من حديثه مع ذلـــك الثّائر الحاكم القابض :

- "فين مكتب الحسابات ده .. لو سمحت ؟"

- "آخر الطرقة على الشمال .. اتفضلوا فطـــار .. بـــسم الله ."

قالها الموظّف إيذاناً بأن وقتهم قد انتهى معه ، وأنّ علـــيهم أن يتركوه إن كان لديهم إحساس بالمسئولية ؛ ليـــدبر شـــئون دولته ، وينعم بخيرها ويأكل خيراها .

اتجه "مصطفى" ، ورفيقيه مسرعين إلى حيث أشـــار لهـــم موظف الاستقبال .. مروا في طريقهم على عنابر مفتوحـــة ..

رجالاً ونساءً ، مرضى وأصحاء ، في أسرة متجاورة .. باعة جائلين ، مثلجات ، بقالة ، مستلزمات طبية ، سندويتشات ، ملمّعي أحذية .. الكل موجود ، ومن ليس موجوداً يمكن تواجده بسهولة .. فئة واحدة غابت وعزّ وجودها .. الأطبّاء والممرضات .. لا بأس فلديهم عملهم الليلي .. لازالت القطط على الأرض والفئران في الأركان ، والزّواحف الصغيرة على الحوائط .. كمّ التلوث والقذارة فضحة ضوء النهار .. لكن القائمين على الأمر لا يخشون الفضيحة .. سائرون على منوال قول الشاعر :

– " فإن لم تستح ، فاصنع ما شئت ."

وكما "لا يضير سلخ الشاه بعد ذبحها" ، فلن يضير هؤلاء رؤية قبيح عملهم ؛ لأن ما هم عليه أقبح بكثير .. من الممكن أن يكون هذا المكان أيّ شيء غير كونه مستشفى .. وإذا ما رسخت تلك الحقيقة في العقل يكون الواقع الأليم أنّها بالفعل مستشفى .. لكن لكي يكون هناك منطق للأمور فهي مستشفى عامّة .. ولا عزاء للمواطنين .

دخل "محيي" على موظّفة الحسابات الجالسة خلف مكتبها ، وقد انهمكت في عملية الطّلاء التي تقوم بها بجد وحيويّة ونشاط .. يبدو أن اللّون لا يعجبها ، لكنها تستمر .. تقدّم منها مستفسراً بابتسامة ليس لها معنى :

- " في حالة دخلت عندكم إمبارح بالليل باسم : "راضي عبد المعز" .. قالوا لنا نيجي نسأل عندكم ."

وضعت الزجاجة التي كانت تأخذ منها مداداً لطلاء أظفارها على المكتب بحذرٍ ودقّة متناهية كأنها أحد العاملين في المفاعلات النووية .. أغلقتها وهي تنفخ في تلك الأظافر الملطخة بالطّلاء بعد أن عقفتهم أمام شفتيها .. فتحت الدفتر الذي أمامها وبحثت فيه :

- "راضي".. "راضي" .. "راضي عبد المعز" ..أيوه .. أيوه .. ده عليه ألف جنية ."

اندهش محيي من مقالتها ،كأنها لم تع ما سمعت أو وعت ولم تفهم :

- "ألف جنية إيه يا ستي .. احنا بنسأل هو فين ؟"

أغلقت الدفتر وعملية النفخ مستمرة للتجفيف ؛ ليبدو الطلاء بعد ذلك "ميتالك" كأنه "دوكو فرن" :

- " هو موجود عندنا لغاية ما تدفعوا الحساب ."

- " طيب احنا عايزين نشوفه الأوّل ."

قالها "مصطفى" بصوت منخفض يفيض منه الاستعطاف والاسترحام .. لكن رد الموظّفة الآلي أتاه :

- لا يا فندم .. أنت تدفع الحساب الأول وبعدين تستلمه .

- "يعني هوّ خفّ خلاص ؟"

نظرت الموظّفة إلى "مصطفى" ، وابتسمت ابتسامة واسعة ، كأن ما سمعته أثار شهيتها للمــرح والــسرور ، والــسعادة والبهجة، لانطلاق في يومٍ مبهجٍ من أيام شم النسيم ؛ ليتماشى مع ذلك التلوين التي قامت به تواً :

- " خف !! .. خف إيه يا أستاذ !!! .. "راضي عبد المعز" مات .. أنتم ح تستلموه من الثلاجة بس بعد دفع الحــساب اللي عليه ."

تراجع "مصطفى" خطوتين كأن ما قالته ســحب بــساط الأرض من تحت قدميه .. أشاح بكفيه إلى لا شيء من أمــام عينيه .. نظر إلى "فوزي" و "محيي" الذي أجلسه في ذهول غير مصدق ما سمع .. غلبه الشعور بالقيء ، لكن معدته الخاوية لم تجد ما تدفعه :

- " هيّا بتقول إيه؟!.. مات ؟! .. إزاي ؟! .. مات ؟! .. يعني إيه ؟!"

فجأة أنفجر البركان وتدفقت منه الحمــم .. نهــض مــن جلسته والذّهول قد كسا وجهه .. ضرب على المكتب وقــد انتابته حالة هياج .. حاول "محيي" السيطرة عليه :

– "آه يا ولاد الكلب .. موتّوه .. قتلتوه يا ولاد الكلب ."

دون أن تهتز أو يرمش لها جفنٌ ، أو يظهر عليها أي مظهر للانفعال ،كأنّها معتادة عى هذا الأمر .. نظرت إليـــه بـــبرود طبيب شرعي أعياه الملل من رتابة مناظر أشكال الموتى علـــى اختلافهم :

– " اهدى واسمع .. الكلام ده مش ح ينفع .. يـــا ريـــت تدفع في هدوء عشان تاخد الجثّة من غير ما تتبهدل ."

تقدم منها "فوزي" ، وقد كست ملامحه ابتسامة تنمّ عـــن امتعاض واستياء بالغين :

– "هي دي مش مستشفى عام برضه ؟!!! .. يبقى حساب إيه اللي بتتكملوا فيه !!!"

وضعت زجاجة الطلاء في درج المكتب ،و أغلقته بقـــوّة .. محذّرة ، ومعلنة أنّها وصت لحد الانفعال هي الأخـــرى فـــلا يغرنّهم حِلمها .. وهي تبتسم ابتسامةً لزجة أقوى من لزوجـــة الصمغ :

– " أدوية ومعدات استّخدمت على حساب المريض قبـــل الوفاة ؛ لعدم وجودها بالمستشفى ؛ لسرعة إنقاذ حالته ؛ لأنّها كانت حرجة ."

بذات الابتسامة يقول "فوزي" :

- " طيب فيه دكتور نعرف منه سبب الوفاة ؟"

بذات اللزوجة تقول الموظّفة :

- " برده بعد ما تدفع الحساب ."

- " يا ولاد الكلب .. آه يا كفرة .. أنا ح أعرف آخد أبويا إزاي ."

قالها "مصطفى" ، وقد عاد للهياج مرة أخرى .. أطاح بكلّ ما على المكتب أمامها .. نظرت إليه بانزعاج ، وتأفّف كَميِّت بُعث أثناء تشريحه وما في ذلك من بعثرة للأدوات ، وإهراق للدّماء وفوضى سوف تعمّ المكان رغم أنه لن يعود للحياة من جديد .. دفع "فوزي" من أمامه محاولاً الخروج من مكتب الحسابات .. اختل توازنه .. كاد أن يسقط عند عتبة الباب .. تلقّاه بنيان بشري ضخم .. أوقفه خارج المكتب وقد سيطر عليه .. ألصق ظهره على الحائط :

- " اهدى.. اهدى بقى واسمعني .. وخد المفيد مني أنا .. أبوك مات الله يرحمه خلاص .. لو خدته لازم تدفع الألف جنية الأول يا إما يحجزوه .. وبعدين تكفّنه وتدفنه في التراب عشان الدود ياكله ..أنا بقى هدفعلك عشرين ألف جنية ، وأتولى دفنه بمعرفتي .. إيه رأيك ؟ ."

اقترب "محيي" من العامل ، وقد برقت الفكرة في عقله بعد أن لمحها في عينيه ، وقرأها على شفتيه :

- " مش فاهمين .. تقصد إيه يعني ؟"

- " يعني الموت علينا حق .. والروح طلعت لباريها .. والجتة حتروح في التراب ببلاش .. طب ما نستفيد منها قبل ما تروح .. والحيّ أبقى من الميت ..!!"

- " يا ريت توضّح أكتر ."

- "م الآخر .. الجتة الطازة هنا بتطلع بعشرين ألف جنية .. وما لكش دعوة بيها بعد كدة ."

- "عايزيني أبيع أبويا ليكم يا ولاد الحرام ."

كانت آخر ما قال "مصطفى" قبل أن يلكم العامل لكمة مباغته ، وقويه بكل ما به من غلّ وحزن وقهر ، وإحباط ، فأسقطه أرضاً .. في ذات اللحظة مرّ ذات الطبيب الذي استلم "راضي" منهما بالأمس .. نظر الطبيب "لمصطفى" باستهانة وازدراء ، وكأنّ بينهما عداء محكم ؛ لتكون تلك النّظرة شرارة البدء لمشاجرة حامية الوطيس معه ، بعدما أطاح "محيي" بقدميه من على الأرض في حركة خفيه لم يلمحها أحد .. انقضّ عليه "مصطفى" بعدها ، واشتبكَ معه ، وتدفّقت على وجهه اللكمات بلا صد ولا رد .. حاول "محيي" ، و "فوزي" بعد ذلك التدخّل وتهدئة الموقف بلا جدوى .. امتلأ المكان برجال الأمن ، وأحاطوا بهم جميعًا ، ولازالت جثة "راضي" راقدة في ثلاجة الموتى .. حزيناً على ابنه لما استطاع أن يقرأه من سطورٍ في كتاب وليده التي لم يقرأها هو بعد .

الفصل الثامن

الوطـــن

- ١ -

فُتح الباب الخشبي الكبير لتلك الحظيرة الآدمية .. خرج "مصطفى" في صفّ من البشر خلفه وأمامه .. وصل إلى عتبات ذلك الباب .. سبقته ساقه ، فلطمت الشمس عينه بشعاعها .. رسالة فهمها ، ووعاها جيداً ذكّرته بها تلك الأشعة .. لا تتعدّى حدودك ، أو تتجاوز قدرك ، واعلم أنّك ضعيفٌ حقير وهذا قدرك .. ارتقى ذلك السلم الخلفي للسّيارة الرابضة في مكانها أمام الباب .. دخل في كهفها الليلي بعتمته رغم أنّ الشمس قادحةً في كبد السماء .. نظر من تلك النافذة الضيقة النافذ منها الضوء شحيحاً كنصيبه في تلك الحياة .. ابتسم عندما وقعت عيناه على تلك اللوحة القابعة فوق ذلك الباب الخشبي الكبير - "السجن تأديب وتهذيب وإصلاح" - اكتمل العدد البشري داخل سيارة الترحيلات التي دارت عجلاتها ؛ لتسلّم هؤلاء المذنبون المفرج عنهم بعد أن قضوا فترة عقابهم وأعيد تأهيلهم إلى ما كانوا عليه من إجرام وتهذيبهم ، بإضافة ما تعلموه في هذا المعهد الإجرامي الذي يترل فيه المجرم دركات الإجرام بخطىً ثابتة ؛ ليصل في نهاية طريقه إلى قاع الهاوية دون أن يتمّ إصلاحهم .. وجوه غير التي كانت معه في قفص الاتهام .. مدد تم قضاؤها غير التي سمعها في ذلك القفص الخانق إضافة إلى السّنة مع الشغل التي قُضي عليه بها .

لأوّل مرة يشعر بالأسر .. شعر ذات الشّعور الذي كانت تشعر به دجاجات المعلم "حلّي" .. أمامه ، على الجانب

الآخر وقف "محيي" .. طمأنه بأنّ والده كانت دفنته سويّة و لم يستطع أحد أن يأخذ منه شيئا .. أكّد له بأغلظ الأيمان أنّه أشرف بنفسه على كلّ الترتيبات حتى انتهت كيفما أراد ، وحسبما شاء .. كان عذره في عدم زيارته له في النّيابة : "انشغاله بترتيبات رحلة راضي الأخيرة" .. أعلمه كذلك أنه كانت هناك توصية قوية عليه بعدم الزّيارة .. لم يكن مرتاحاً في جلسته .. كهف السيارة المظلم تكدّس بأربعة أضعاف قدرة استيعابه من اللحم البشري .. تم إغلاق الباب عليهم من الخارج ؛ ليتحدوا أو يتناحروا ، أو يتحادثوا ، أو يتشاجروا .. أي شيء يفعلوه يكون لهم أو عليهم وحدهم .. من بالخارج لا يهمه من أمرهم شيء .

لم تكن سيّارة الترحيلات التي تقله لمستقبل مبهم غامض أفضل حالاً من تلك السّيارة التي أوصلته إلى قسم الشرطة بعد عراكه في المستشفى .. أجلسوه في مكتب .. على الأرض طبعًا .. كأنّ جلوسه على كرسي سيؤكد له ولهم ، أنه لازال إنساناً له .. له أي شيء .. المهم أن يكون .. له .. وليس عليه .. لم يحادثه أحد .. وهل الإنسان يخاطب ما دون جنسه؟ .. لم يعرف ماذا سيحدث له .

كانت البداية لفقد أهليته ، ويقينه أنه لم يعد له من أمره شيئاً .. جلس شارد الذهن .. سابحاً في فضاء العدم .. بدا ،

وكأنه ليس في هذا العالم أو منـــه .. حلّـــق مـــع أطيـــافٍ لا يعلمها .. طاف في عالم ليس هو بالدنيا ، ولا هو بـــالآخرة ، ولا هو بالبرزخ .. تيه من الفراغ ، والعدم واللا شيء .

شعر بخطٍ رفيعٍ من سائلٍ دافئ يسيل من أنفه .. تحسّـــسه بإبهامه اليمنى ، ثمّ مسح ما علق بإبهامه على الحـــائط خلفـــه ؛ ليعلن أنّ أولى بصماته في ذلك المكان ستكون بدمه .. شعر مع الدم بتلك الآلام تسري في سائر مناحي جسده .. لكنّه لم يـــرَ تلك الألوان التي تلوّن بها وجهه ، وبقع كثيرة من جـــسده .. غرق في محيط تفكيره العميق الذي كان بلا أمواجٍ ، ولا مياه ، ولا دوّامات .. فراغًا هائلاً فارغاً حتى من الفراغ .. لا شـــيء به ، وليس فيه شيء .

دخل عليه الضّابط ، وجلس خلف مكتبـــه دون أن ينظـــر إليه .. هل يهتم بشيء في حجرته لا قيمة له .. فتح ملفّاً أمامه على المكتب ، وقرأ منه .. لم يرفع ناظريه عن الأوراق :

– " إيه يا عمّ "مصطفى" ..إنت عامل فيها بلطجي ، واللا إيه ؟"

– " أنا محامي .. وبتّهم المستشفى ، والدكتور بقتل والدي، أو على أقل تقدير الإهمال في علاجه لغاية ما مات ."

– " اصبر بس علينا يا عمّ المحامي .. إنت عندك هنا لكشة اتهامات توديك في ستين داهية .. تعدي على عامـــل ثلاجـــة

المستشفى بالسبّ ، والقذف ، والضرب ، وسرقة مبلغ مائتي جنية وجدوا في جيب بنطلونك الشمال .. وتعدّي على طبيب بذات المستشفى بالسبّ ، والقذف ، والضرب ، وإحداث عاهة بعينه اليسرى أدت إلى ضعف البصر بنسبة ستين بالمائة (٦٠٪) .. إية رأيك بقى ؟"

- "كل ده كدب وافتراء .. الكلام ده كله اتطّبخ في نقطة الشرطة اللي في المستشفى مع الضابط اللي هناك ؛ لأنه قريب الدكتور .. وانت ما لكش أنك تحقق معايا ، أو تحتجزني هنا حتى ."

- " ده انت لمض أوي ."

دخل عليهم "مفيد" رئيس المباحث .. انتفض الضّابط واقفاً من جلسته خلف مكتبه .. رمق "مصطفى" بنظرةٍ معدنيّة باردة غير آبه به .. في يده علبة سجائر أمريكية ، وقداحة إنكليزية وتلفون محمول ياباني ، وقد فاح منه عطرٌ فرنسي في كلّ حركة وسكنه .. خطواته واثقة لدرجة تجعل الأرض تكاد تتشقق من تحت قدميه .. كرهه "مصطفى" بمجرد أن وقعت عليه عيناه .. خاف منه .. شعر أنه شر قد حاق به ."

- "مساء الخير يا سيادة النّقيب .. فيه إيه .. أنا سامع الواد ده بيقول كلام جامد أوي .. إنت صابر عليه ليه ؟"

- " دا انتو عصابة بقى .. مش ظبّاط شرطة .. أنا عـــايز "عضو مجلس نقابة المحامين" ييجي حالاً يحضر معايا التحقيق ."

تكلم "مصطفى" برعونة لسان لم تلجّم بلجـــام الحكمـــة وعنان العقل .. لم يدرك أين هو ؟ ، ومع من يتحـــدث ؟ .. التفت إليه "مفيد" ، وهو يبتسم ابتسامة حية رقطاء .. التفّـــت حول فريستها ؛ لتحكم قبضتها عليها قبل أن تنشب حقـــنتي سمها في جسدها الضعيف :

- " إيه رأيك أنا ح خليك تـــشوف عـــضو تـــاني .. ح يعجبك قوي ."

همّ "مصطفى" بالرّد .. صفعه "مفيد" على وجهه صـــفعةً قويّةً أسقطته أرضاً :

- " إيه يا ابن الجزمة .. إنت جاي تعرفنا شغلنا .. ده أنت مالكش سعر .. بيومي ... عويس ."

دخل قاطرتين بشريتين وقفا أمام "مفيد" في الحال :

- " الواد حمدي الناشف في الحجز من إمبارح .. صح ؟"

- " تمام يا افندم ."

- " دخّلوا الواد ده عليه .. عايز آخد تمام إن دُخلته تمـــت النهارده .. مرّتين على الأقل ."

دفن "مصطفى" وجهه في راحته كأنه يريد أن يهرب من ضوء الذّكرى الخافت في ظلام السيّارة إلى ظلامٍ آخر إضافيّ عساه يفرّ مما يراه بعيني ذاكرته .. لن ينسى ذلك اليوم أبداً .. لم يكن يتخيّل أنّه يوماً سيكون هو الموضع السالب ، ويغزوه قطب موجب .

لكن الأمل في القضاء .. لازال هناك بقايا من ضياء .. لم يحكم الظلام قبضته بعد .. نعم إنّه الملجأ للمظلومين ، والملاذ الآمن للمقهورين .. إنّه كلمة الله على الأرض .. القانون لا يحب ولا يكره لأنّه معدوم الهوى .. لكنّه يرحم ويرفق ؛ لأن ضميره العدل .. ليس له مشاعر لكن له روح .. هو الصّرح الشامخ الذي لم ، ولن يتهدّم مهما كان طوفان الظلم .. إنه الضياء الحارقة لخفافيش الليل .. إنه الفيض الدّافق من الماء الطّاهر الذي يبدّد رجس القهر الآسن العفن .. إنّه الكلمات الإلهية التي تحرق كل شيطان مريد .

دخل "مصطفى" على وكيل النّيابة الجالس خلف مكتبه .. عقدت الدهشة لسانه ، وهو يرى "مفيد" جالساً واضعاً ساقه اليمنى على فخذه الأيسر أمام وكيل النيابة "أحمد السلحدار" ، وهما يتضاحكان .. بعد برهة من دخول "مصطفى" قام "مفيد" مصافحاً "أحمد السلحدار" بحرارة :

– " زي ما قلت لك يا أحمد بيه .. أنا اللّي عملت القضية دي بنفسي ، وهي مستوفاة تماماً ."

– " اطّمن يا باشا .. القانون لازم ياخد مجراه ."

– " أشوفك في النّادي باللّيل النّهارده .. مع السّلامة ."

وضع نظّارته الشمسية أمام عينيه ؛ لتؤكّد على الغشاوة الطبيعية التي عليهما .. في طريقه للخروج من المكتب مال على "مصطفى" هامساً بسخرية وشماتة واستعلاء :

– " صبحية مباركة يا عروسة .!!!! "

أطلق ضحكة عالية عبثية ملأ أصداؤها المكان .. خرج من الباب ، وأغلقه خلفه .. انهار "مصطفى" على المقعد الذي كان يجلس عليه "مفيد" .. كادت دموعه أن تنهمر .. هو الآن أمام خادم العدالة وحاميها .. الناطق بكلمة الله على الأرض .. وليس زميل الدّراسة .. الحاقد على تفوّقه في الدّراسة والنّاقم على شعبيته وسط زملائه :

– " يا ريت ألاقي هنا العدل .. عشان أفضح اللي حصل ليّا ."

– " يا ريت تقف ، وانت بتتكلم مع وكيل النائب العام ؛ لأنه مش من اللائق أبدًا ، إن متهم بعدة جرائم جنائية يقعد في حضرة ممثّل العدالة اللي بيحقق معاه ."

قام "مصطفى" من جِلسته .. علم أنّ زميل الدّراسة هو المتحدّث ، وأنّ العاهة هي التي ستتحكم :

- " أنا عايز عضو مجلس نقابة المحامين يحضر معايا التحقيق .. ولو سمحت انت مش من حقك تحقّق معايا لأنك وكيل نيابة جزئية ، وأنا محامي ، واللّي يحقق معايا يكون من النّيابة الكلية بدرجة مدير نيابة على الأقل .. القانون هو اللّي بيقول كده ."

أغلق ملف القضية أمامه .. بهدوء النّار التي تستمد لهيبها من أنفاس الكراهية والبغضاء .. بابتسامة ملؤها التشفّي والشماتة :

- " حقّك .. خده يا عسكري على الحجز ، لغاية ما يحضر عضو مجلس نقابة المحامين .. ونحقّق نصوص القانون ."

علم "مصطفى" أنّ الأمل قد ضاع .. رأى في عتمة الليل احتضار الضياء .. أيقن أنّ الظلام أحكم قبضته .. هدم الملجأ الآمن .. تصدّع الصرح الشامخ .. حلّقت الخفافيش ومصت ، ولعقت ،ورضعت ، وشربت وارتوت .. نضب الماء ، وسالت الدّماء .. حلّ الجفاف وحطّ القحط .. عربدت الشياطين .

***

- ٢ -

خطى "مصطفى" آخر خطوات أسره خارجاً من داخل قسم الشرطة .. تنفّس أولى نسمات الحرية كوليد خرج من ذلك الرّحم الخانق بعد مخاضٍ شاق من حمل سفاح .. أنهى بذلك آخر لحظات عبودية سجنه وأسره البغيض .. مكمن البغض ، ومحل السّخط هو الظلم .. لم يدخل السّجن ؛ ليسدد ضريبة المجتمع عن خرق قوانينه ، أو أعرافه ، أو حتى تقاليده التي تُخترق كلّ يوم كعاهرةٍ اعتادت أعمال البِغاء في الطريق العام ، وأجبرت الشمس على إضاءة لياليها لها ، ولمن معها .. بغيّ تحمل ترخيص بكافّة أعمال الدّعارة ، والعهر .. سندها أحد رجالات السّلطة ، أو المال ، أو كلاهما .. الكلّ يمتطي القانون الذي زهقت روحه ، وفاضت من جراء ما يُرتكب باسمه .. ما دام الشرطة والشعب في خدمته .. إذن معلوم من هو الخادم ، ومن هو المخدوم .

وقف أمام القسم ينتظره .. تلاقت أعينهما .. فتح له ذراعه .. وجد في رحابته الدفء الذي افتقده .. استشعر فيه الأمان الذي نساه ، والحنان الذي يرنو إليه .. وصلت الدّموع إلى عيني "محيي" لكنّه لم يسمح بالإفراج عنها من مقرّ مقلتيه .. توجّها إلى مرقد والديه .. أقام كلّ الطّقوس المعتادة في تلك

المواقف بلا زيادة أو نقصان .. "بكى وانتحب" .. "اشتكى وتظلم" .. "قرأ القرآن" ، وتصدّق من جيب "محيي" .. خرجا من بين شواهد القبور مع دخول الليل .

الليل ثقيل على صدره .. لم يكن يعلم أنّ أوّل ليلة أمام قضبان السجن وخارج أسواره ستكون بهذا الطعم المرّ .. قام من مرقده في بيت "محيي" الخالي من أهل بيته .. وقف عند النافذة المفتوحة علّه يقابل إحدى النّسمات المعارة خارجاً منذ زمن وهي تقضي بعض أيام إجازاتها في وطنها الذي صار نُزلاً للأجازات فقط .. المستقبل ، والعمل والحياة صارت هناك .. لم يعد هنا شيئ للبقاء لأجله .. دخل من خلف النّافذة .. لم يجدها .. علّها قطعت إجازتها وعادت ، أو لم تنزل من الأساس .. أشعل سيجارة ، وأخذ نفساً عميقاً طويلاً يدل على مدخنٍ شره .. لا يمكن لسجين بات ليله واحده في السجن أن يخرج منه بدون أن يصبح مدخّناً عتيد التدخين .. العملة في سجن الحياة هي تلك "الأوراق الملوّنة" .. أما في سجن الأسوار فهي "السّجائر" .

بدأ خيط الدّخان يرتفع ويتطاير في الهواء بانسيابية وتمهّل غير عابئ بالزمان ، أو المكان .. ليست هناك إمكانية للقبض عليه .. ابتسم عند وقع ذلك المعنى على عقله .. آه لو كان بعضاً من هذا الدّخان .. ما استطاع أحدٌ أن يمسك به ،أو أن

يقبض عليه مهما حدث رغم رؤيته ، والإحساس بوجـــوده .. مرّر سبابته من خلاله فقسمه دون أن يشعر به .. ما إن تخطّاه حتى عاد للالتحام ، والارتفاع مرةً أخرى ، والتحليق بعيـــداً كأحلامه وأمانيه الطائرة في فضاء مستقبله الضّيق .. الـــضّائعة وسط رياح واقعه الأليم ..

"داليا" تزوجت .. النقابة فصلته لارتكابـــه جريمـــة مخلّـــة بالشرف ، وثبوتها عليه .. حتى منزله طُرد منه بحيلـــة قانونيّـــة رخيصة من محامٍ غير شريف ارتكب جريمةً مخلّـــةً بالـــشرف ، لكنها لم تثبت عليه ، واستطاع صاحب المنزل أن يأخذ الشّقة منه .. لم يعد له شيء .. هل يسكن قبر والديه .. هل سيسمح له الموتى بذلك .. لم يعد أمامه إلا مياه البحر .. إما أن تحملـــه في هجرته ، أو تنشق فتفتح له قبراً مائياً يواريه ، حـــتى تـــبرد دماؤه ، وتأكله الأسماك على مهل مستهزئةً بتلك القوارب التي تحدث جلبة وضوضاء بأصوات محركاتها المزعجة بغـــير داع ؛ لتؤدي دورها وتكمل عدد لفات دورانها ، ثمّ تغادر منـــسحبةً منهزمة ؛ ليعود الهدوء من جديد ، وتكمل الأسماك حفلتها على طعامها البريّ الطازج .

***

تجافت جفونه .. سال النّور في عينيه .. أعماهما .. أغلقهما مرةً أخرى كمحارة تحافظ على ما بداخلها .. أضاء الظـلام سواد عتمتها .. سمع هدير الأمواج على الـشاطئ المظلـم .. وقف وحوله مجموعة من الشباب لا يعرفهم ولا يعرفونه .. لا يهتم أحدهم بمعرفة رفيق ظلمته .. اعتاد على الرفقـة الغـير معلومـة .. "قفـص الاتّهـام" .. "الـسّجن" .. "سـيارة الترحيلات" .. أنهى "محيي" حديثه مع ذو الوجـه الإجرامـي الذي يسيطر على الأمر .. عاد إلى جواره ، ومال عليه هامسا – وقد أضاء نور الأمل وجهه – فبدد رقعة من هـذا الـسّواد البهيم :

– " كله تمام ."

لا يهم .. فالأمر سواء .. لم يسأله لماذا اليونان ؟! ولمـاذا غيرها ؟ .. لا يهمّ .. فالأمر سواء .. لم يسأله حتى لماذا شاطئ العريش كنقطة للمغادرة ؟! .. ولماذا غيرهـا ؟ .. لا يهـمّ .. فالأمر سواء .. اكتفى بما نقله "محيي" عن صـاحب الوجـه الإجرامي بأنّ تلك النقطة غير مراقبة ، وحدود المراقبة مواليه .. لا يهم .. فالأمر سواء .

لن يخسر شيئاً .. إنه فقد كلّ معنى ، ومفـاد ، ودلالـة ، لتلك الكلمة بعد أن فقد كلّ شـيء .. لم يعـد هنـاك مـا يخسره .. إذن لن يخسر شيئاً .. تكـاليف الرّحلـة إلى ذلـك

المجهول المبهم القادمين عليه قام بها "محيي" على سبيل القرض الحسن الذي يردّ عندما تتحسّن الأمور .. هذا إن تحسنت !! .. الأحوال الجويّة لا تتحسن بل تسوء .. صوت المحرك العالي أشبه بصوت مريضٍ استبدّ به الألم ، فلم يعد يتأوّه أو يئنّ .. صار يصرخ ، ويسبّ ويلعن بلا تمييز ؛ ليدفع زورقاً متهالكاً أعياه الإجهاد ، لكنه صابرٌ عسى الرّاحة تأتي إليه من السماء ، وهو يمخر بهم عباب الليل .

شقّ الظلام أمامهم بلا انفراج .. ولج من أبواب ظلمة إلى ظلام إلى ضياءٍ ضبابيّ لا يُرى منه شيء إلى تيه في بحرٍ لُجّي .. نهاره مالحٌ كئيبٌ ، وليله عتمةٌ حالكة .

مات المريض بعد عدّة زفرات متقطعة .. لم تفلح معه كل الوسائل لإعادته إلى الحياة مرة أخرى .. لقد ملّها واستراح منها ولن يعود .. مهما فعلوا فلن يعود .. وقف الزّورق في العزاء المائي يحمل المشيّعين والمعزّين .. لم يلتفت لهم القمر ولا الشمس في عدوهما المتلاحق في لهو طفولي بريء .. في فضاء بهيج لا يعبئان بغيرهما .. الشمس تضيء النهار ، والقمر يضيء الليل .. كل سائرٌ في مداه دون أن يتخطّاه .

انقلب المعزّين إلى ضحايا .. عرفوا لأول مرة صوت النداهة .. يأتي صوتها من أعماق الماء الرّاقدة فيه أفكارهم ، وأحلامهم الغارقة كسفينة تأسّد عليها الرّان ، وسيطر تماماً ..

أحكم إغلاق أبوابها وكافّة منافذها بسلاسلٍ من يأس مبلس .. سبعة لبوا النداء .. دخلوا بإرادتهم هذا الفم الجائع النّهم الذي لا يسدّ جوعه شيء .. أبداً لا يتعجّل .. صبره أمواج لا تنضب .. يعلم يقيناً أنّ ضحيته آتيةٌ إليه - لا محالة - ، فلم العجلة ؟!!!! .. يغلق فمه عليها ، ولا يفتحه أبداً .. يتجشأ بعض الفقاقيع .. معلناً التهام وجبته تماماً .. ناعياً عدم بقاء ذرة هواء لتلك الحياة فيها .

- " آية .. أيوة يا حبيبتي .. هجيب لك المم حالاً يا حبيبتي .. لأ .. لأ خليكي أنا جيلك ."

خاطب "محيي" النداهة التي جاءته في شكل ابنته آية .. بفستانها الأبيض ، وضفائرها المجدولة بنهايةٍ بيضاء لون شريط جديلتيها الحريري .. جاءت ابتسامتها من عالمٍ غير الذي يحياه .. وقف ملبّياً نداءها .. اتجه ناحية حافّة الزورق ،كأنه يسير في يابسة شارع مترب خال من المارة .. اتجه عابراً نهر الشارع بمائه المالح ، وأرضه المائية وقراره السحيق .. قام "مصطفى" من جلسته رغم إجهاده .. راعه ما سمعه من "محيي"، وما رآه قادمٌ عليه .. علم أنّه دخل في نوبة هذيان ، وقد يفعل أيّ شيء .. علم أنّه لم يعد معهم .. هو الآن في رحاب طيف ابنته :

- "محيي" انت رايح فين .. وبتكلم مين ؟!!"

- "آية عايزة تعدّي الشارع لوحدها .. أنا رايح أجيب لها علبة لبن ، ولينا إزازتين ميّة ،وكام سندوتش ناكلهم ."

- " ح تروح فين بس .!!"

- " المحلّ .. أنا فاتحه اهو .. مش حتأخر ."

التهم الفم الجائع ضحيّته الثامنة ، لكن "مصطفى" أبى أن يجعله يهنأ بها .. قفز خلف "محيي" بعد عراك مع من تبقى لهم قدر من الجهد ؛ ليمنعوه مما أدّى لتوسعة ثقب كان قابعاً في القارب .. اندفعت المياه كأنامل الموت التي تشد القارب في هدوء لأسفل .. طفت الأجساد الواهنة على الماء ؛ لتشهد آخر ما خطّه القدر لهم بعد أن امتصّ الظلم ، والقهر جذوة شبابهم .

واجه الموت في عقر داره فاتحاً ذلك الفم النّهم للّحاق بصديقه ، وانتشاله من براثنه لكن هيهات .. لاطم الأمواج ، ولاطمته .. تجمّعت روحه في ذراعيه ، وقدمه دون سائر جسده .. لا يعلم عدد اللكمات التي كال بها ذلك الفم .. نزل ضيفاً عليه في ظلمة هدوء وسكون .. كانت ضيافته في ذلك العدم الذي سبح فيه .. لم يسمح له بلقاء "محيي" ، ولا حتى بإلقاء نظرة عليه .. ولج "محيي" من ممر الذّهاب والمغادرة .. ودلف "مصطفى" في ردهة العدم .. عدم الانتظار .

- ٤ -

حاولت المحارة من جديد إدخال الضّياء إلى قلبها المظلم .. تجافت جفونه من جديد .. فتح "مصطفى" عينيه بصعوبة بالغة .. بدأ في استرداد وعيه تدريجياً .. الصّورة لازالت ضبابية مشوشة أمام عينيه .. هناك نافذة كبيرة نافذٌ منها ضياء شمس النهار .. إنّه ليس في قبر ، وليس في قاع البحر .. إذن لم يمت بعد .. وجد نفسه نائماً على سريرٍ .. حاول أن يتحسّس ما حوله بناظريه ؛ ليتعرف عليه لكن الصّورة لازالت ضبابية ومشوشة .. قام بجذعه بهدوء .. طبول الدّنيا اجتمعت بكل أشكالها ؛ لتدق في رأسه مسبّبة صداعاً رهيباً كاد أن يفتك به .. حاول أن يرى الصّورة بوضوحٍ بلا فائدة .. فجأة تذكّر .. "البحر" .. "الزّورق" .. "المحرّك" .. "رفقة الضّياع" .. "محيي" ..

تلفّت عن يمينه ويساره ، علّه يجده إلى جواره ، لكنه لم يجده .. رأى على الحائط الذي أمامه - وهو جالس على السّرير - بندقية صيد معلّقة مزودة بمنظارٍ للقنص على مسافاتٍ بعيدة .. تحتها مرآة وضعت أمامها عديدٌ من زجاجات العطورِ ، وأدوات الماكياج والتصفيف .. نظر إلى يساره ؛ لتقابله نافذة تدخل منها آشعة شمس الأصيل بميولها الحادّة ، ولونها الذّهبي لتضيء الحجرة دون أن يشعر بها .

فجأة نظر إلى يمينه في الجانب الآخر تجـاه بـاب الغرفـة المفتوح .. وجدها واقفة عند عتبته ناظرة إليه دون أن يـشعر بها .. وقفت بشعرها الذّهبي المتهدّل على منكبيها مـسترسلاً كشلّالٍ من قمح كسرت صومعته ، وسال منها في انـسيابيّة رائعة كروعة انسيابية جسدها الممشوق بلا أدنى زيـادة ، ولا أي نقصان فيه .. عيناها المحقونتين بزرقة السماء .. ابتـسامتها العذبة على شفتيها كثمار الكرز في ربيعٍ مشرقٍ تريح النّفس ، وتطمئن القلب ، وتوحي بالأمان .. نظرت إليه :

- "حمد الله على سلامتك .. أيش كل هادا النوم ."

- "أنا فين؟!.. فين" محيي" ؟! .. أنا إيه اللي جابني هنا ؟!"

- "إنت في بيتك ومطرحك .. ومين هادا الزلمة اللي اسمـه "محيي" ؟ .. خيّك ؟"

- "أكتر من أخويا ."

- "ومين آية ؟ مرتك ؟"

- "لأ..دي بنته .. إنتِ مين ؟! .. أنا جيت هنا ازّاي ؟! .. والسلطات خدت بيّا خبر ولا لأه ؟"

تقدمت نحوه .. جلست على حافّة الـسرير .. أخـذت مقياس حرارة من درج الخوان القابع إلى يمينـه ، وألقمتـه في فمه .. قبضت بأناملها البضّة عل-ى شرايين ساعده الأيمن - وهي تقول - :

- "قارب صيد نشلك ، وانت بتطالع في الروح .. خدوك، وسلّموك للسلطات .. ليّا قريب هناك عرّفني إنك مصري لمـــا شافوا الباسبور تبعك .. جيت وخدتك على مسئوليتي لغاية ما تتعافى .. هادي كل الإصة ."

غالب القيء من هذا الجهاز الموضوع في فيـــه .. أخرجـــه بحركة مفاجئة .. احمرّت عيناه ووجهه الـــشّاحب ، لكنـــه لم يقيء :

- "ومحيي ما فيش أخبار عنه ؟"

- "ما كان فيه حدن سواك في المية ، لما نشلوك منـــها .. وإلا كانوا نشلوه معك ."

- "يبقى مات .. يا خسارة يا "محيي" .. إنا لله وإنا إليـــه راجعون .. والسلطات اليونانية خدت خبر عنّي وعن وجودي هنا ."

- "لأ طبعاً ."

- "ليه ؟!"

- "لأنك ما انت باليونان ."

- "أمال أنا فين ؟"

- "إنت في إسرائيل حبيبي .. بيتك ومطرحك ."

***

- ٥ -

رقد في استكانة جهيدة ، وطفولة بريئة .. أعياه الفكر ومحاولة ربط الأحداث بحبال المنطق الممزّقة .. أجهده تصوّر ما هو فيه ، وما هو قادم عليه .. غاص في مرقده .. لم يعد يعلم منطق إلا في نومه .. يقظته أصبحت كوابيس متلاحقة لا يرتاح منها إلا عند هروبه في أحلامه ، التي لم تزل محافظة على شيء من المعيار الثّابت للأحداث ، والمنطق المفهوم لها .

هل يعقل أنّه الآن في إسرائيل .. هل هناك عقل ، أو شيء يعقل فيما مرّ به ؟ .. لا بدّ وأنه مصيّر لشيء ما .. كل ما يفعله يؤدي به إلى ذات النتيجة .. علم أنّه في موطن الأعداء .. طلقة من فوهة فمها الدقيق أطلقتها مخترقة عظام رأسه ، وتلافيف مخّه ، وفراغ عقله .. شحنة كهربائية عالية الضغط ارتعد لها جسده وكيانه كله .. هاج وماج .. صاح وطاح .. هرب من رقدته في منزلها إلى اعتقال في مكان أمني .. جلس وحيداً ساعاتٍ لم يحصها :

- "إسرائيل .. يا نهار أسود .. رحت في داهية يا "مصطفى" .. أنا كنت رايح اليونان .. إيه اللي جابني "إسرائيل" ؟!!!! .. أكيد حظّي الأسود .. يا ترى ح يعملوا فيّا إيه .. يحبسوني واللا يرحّلوني واللا يجنّدوني .. يا رب هيّا الدنيا عاملة معايا كده ليه ؟!!!!"

- "حمد لله على سلامتك يا درش .. أنا الرّائد "عبد الحميد الأسيوطي" .. الظرف ده فيه باسبورك ومعاه تأشيرة رسمية لدخول الأراضي الإسرائيلية ، وألف دولار .. يعني وضعك دلوقتي سليم مية مية .. وتقدر تقعد زي ما انت عايز .. ولو حبيت تشتغل أهلاً وسهلاً .. نحوّل لك التأشيرة من زيارة لعمل ونطلّع لك إقامة كمان ."

- "ولو حبيت أرجع على مصر ؟"

- "مع ألف سلامة .. أول رحلة لمصر للطيران تكون عليها .. وانت حر يا عم في اللي ح تلاقيه هناك .. رجوع من عند البعبع بتاعهم .. إسرائيل .. وقابل يا "معلّم" .. "مخابرات" .. و "أمن دولة" .. و"سين وجيم" .. و "اعتقال" .. و"سفر غير شرعي لليونان" .. يعني قائمة اتهامات طويلة .. وبهدلة وقلّة قيمة .. انت أدرى ببلدك منّي يا عمّ "مصطفى" .. على كل حال انت حر باسبورك في جيبك ، ووضعك في الدّولة قانوني .. وابقى رد عليّا بعدين .. مع السلامة ."

- " من غير لف ودوران .. انتم عايزين مني إيه ؟ ! "

- " الله يخرب بيت الأفلام والمسلسلات اللي خرّبت العقول .. خلاص يا ابني ما عدش فيه الكلام ده .. الوضع دلوقتي مفتوح على البحري ، واللي عايزين نعرفه بنعرفه بالطلب .. يا اللا مع السلامة ."

– "بس انت اسمـــك ، ولهجتـــك مـــصرية خـــالص .. يعني ....."

– "وإيه المشكلة في دي .. أنا مصري إسرائيلي .. كنـــت مصري عايش في مصر .. لكن لّما جيت إسرائيل انتميت ليها، واشتغلت فيها زي ما انت شايف .. صدّقني يـــا "مـــصطفى" الحياة بقت سهلة في العالم كلّه إلا في مصر .. مـــع الـــسلامة بقى ."

هل يعقل أن يكون الضّابط الإسرائيلي الذي دخل عليـــه ، وقطع وحدته وحادثه بالعامّية المصريّة .. مصرياً .. أو كـــان مصرياً .. لم يقاوم "لندا" عندما وجـــدها في انتظـــاره عنـــد خروجه ؟.. تكوّم في سيارتها :

– "تقدر تخّبرني ليش هربت مني ، أوّل ما إلتّلك : "إنك في إسرائيل ؟" تقدر تقولي :"إيه الفرق بين إسرائيل ، واليونان .. ما هناك يهود ، وهنا يهود ؟"

– "انتي بتستعبطي .. الفرق كـــبير .. وســـببه حاجـــات كتير .. فلسطين وبعدها سينا .. ست حروب معاكم .. "جمعة الشوّان" ، و "رأفت الهجّان" عارفاه "جاك بيتـــون" ، و"عبـــد المنعم رياض" ، و "ليلى موســـى" ، و "دكتـــور المـــشد" .. المستوطنات ، وطرد الناس من أرضهم .. قانـــا أوّل ، وتـــاني ودير ياسين ، وبحر البقر ، وغزّة .. وغيره وغيره .. كفاية كده ولا أكمل لك ."

انفجر فيها كالبركان .. أودع كلّ مكنون نفسه حمماً في حجرها البارد .. اتسع صدرها لكلّ ما قاله .. لم تقاطعه .. ابتسمت بعدما أنهى كلامه :

- " كل الكلام ده أنا خابراه .. بس ده ماضي ، ولازم ننساه .. إنت اهو في إسرائيل حسّيت بأي حاجة من كل اللي انت بتقوله ؟ وخليك صريح ."

- " بصراحة لأه .. بس هو من امتى الحدّاية كانت بترمي كتاكيت ؟؟ !!"

- " بذمّتك في مصر العيشة كتير منيحة ؟ ولو كانت عجباك .. رميت نفسك في البحر ليه لجل ما تخلص منها ؟ واللا هي الصراحة بتزعّل ؟!!"

أشاح بوجهه ناحية النافذة ، وقد نفذت "لندا" بكلامها إلى عقله ، وسيطرت عليه ، ورفعت راية منطقها :

-"إنتي عايزة تقولي إيه ؟"

- " من غير زعل ؟"

- " من غير زعل ."

- "إنت إيه بمصر ؟! .. شاب ماله وظيفة ، ولا مستقبل ، ولا أمل حتى في بكرة .. ولا حاجة .. القرد اللّي بالسيرك له تمن عنه .. وعلى أيّ حال لو تحب تطلع على أي مكتب طيران

حالاً ، وتحجز لمصر ما في مشكلة .. شارع بن يهودا ما هــو بعيد عن هون ، وعلى فكرة ، فيه مكتــب لــشركة مــصر للطيران .. اللي لو كنا أعداء – كيف ما بتحكي – ما كــان لهادي الشركة الكبيرة "الحكومية" – كيف ما بأعتقد – مكتب لها عندنا .. مو هيك ، ولو بدك تبلش معاي ، ونكمل كلامنا في البيت .. أنا برافقك .. اللي بدك إياه ؟"

فكّر "مصطفى" قليلاً في كلام "لندا" له .. حاول أن يــدفع تدفّق إمدادات الإقناع الجامح المتواصل على عقلــه المجهــد ، وفكره المشتّت .. لم يستطع تخيّل ما يمكن أن يُفعل به عنــدما يعود .. هل سيصدّقوه ، ويتفهموا ما حدث لــه ؟ .. ألجمــه خوفه ممّا سيلاقيه ، ورعبه مما هو في انتظاره .. كــان ذلــك الشّعور كافياً باستمالته ؛ وتوليد رغبــة كاســحة للاقتنــاع بكلامها الذي استقرّ بداخله .. نظر إليها منهزماً :

– "اطلعي على البيت ."

هالت عليه "لندا" الغطاء كدمية في مهدها الورقي .. رقــد على شقّه الأيمن .. وصلت إلى باب الغرفة ؛ لتطفئ النّــور .. الروب الذي ارتدته على قميص نومها القصير الذي أبرز كــلّ مفاتنها زاد من جمالها الطّاغي ، وأنوثتها وحلاوتها في عينيه .. نادى عليها بصوتٍ منخفض ، ونبرةٍ صارخة تريد الارتواء من تلك العين الصّافية العذبة .. التفتــت إليــه مبتــسمة في دلالٍ

خبيث .. انحنت عليه لتدع المجال لنهديها يتدلّيان أمام ناظريه داخل قميصها خاصة ، وهي لا ترتدي حمّالة صدر :

- " بدك إشي ؟"

أخرج يده من تحت الغطاء .. قطف ثمرةً من سلاف ذلك العنقود المتدلّي .. أمسكت بكفّه ، وأعادته مكانه تحت الغطاء .. نظرت إليه بذات الابتسامة :

- " هادا اسمه زنا يا "مصطفى" .. بدّي ما تفهم وجودك هون خطأ .. تصبح على خير ."

أحسّ بإحراجٍ بالغ .. تمنّى لو أن يده شُلّت قبل ما قامت به .. لن يفلح ترميم الكلام بعد التصدّع الذي أحدثه فعله .. خرجت من الغرفة بعد إطفاء النور عليه ؛ ليهدأ وينام .. دلفت إلى حجرتها جلست على حافة سريرها ، وقد تجهّم وجهها .. شابكت أصابع كفّيها أمام وجهها .. أسندت ذقنها عليهم .. أمسكت الهاتف وطلبت رقماً :

- " ألو .. بون سوار مسيو ديفيد .. كل إشي صار كيف ما أردنا .. التقرير هيبقى على الميل تبعك كمان عشر دقائق ."

***

- ٦ -

استيقظ "مصطفى" من نومه .. أرهف السمع .. إنّها هي ، وهذا هو صوتها ..

- " يا صباح الخير يا اللي معانا يا اللي معانا .. الكروان غنى وصحانا وصحانا ."

نعم إنه هو .. صوت أمّ كلثوم .. أذنه لم تخدعه .. قام بحثاً عن "لندا" ، ولم يجدها في المترل .. عاد إلى الغرفة التي كان نائما فيها .. أخذ منشفة ودخل بها إلى الحمام .. فتحت "لندا" باب الشقة ، ودخلت ومعها لفائف حوت بداخلها ملابس جديدة ل-"مصطفى" ، ولوازم للمترل .. وضعت حملها على المقعد المتحلّق مع إخوته الثلاثة حول أمّهم .. لكنها يبدو عليها قويّة الشكيمة جيّدة الصنع بختم بلادها لم يجر عليها أي عملية تجميل .. جلست على الأريكة المواجهة لباب الشّقة في انتظار "مصطفى" الذي خرج مرتدياً "برنس" وجده بالدّاخل ، وعلى رأسه المنشفة ، وقد بدت عليه علامات النّشاط والحيوية .. أزاح المنشفة من على رأسه ؛ لتتلاقى أعينهما .. نظر "مصطفى" ل-"لندا" بإحراج .. أراد أن يعتذر لها عمّا بدر منه بالأمس ، لكنه لم يستطع .. ابتسم ابتسامة باهتة ، وهو يسألها :

- "إنتي كنتي فين ؟"

- "كنت بسوي لك أهم مشوار في حياتك .. لقت لـــك وظيفة ."

- "مش ممكن !!."

- "زي ما بقولك .. نفطر ونلبس هدومنا الجديدة .. والميّة راح تكدّب الغطاس .. مش بتقولوا هيك في مصر ."

نظرة "مصطفى" ل-"لندا" في امتنان بالغ لم تكن وافية لما بداخله تجاهها .. تقدّم منها ، وأخذ كفّهـــا الأيمـــن ، وقبّـــل ظاهره .. لقد شعر أنها بدأت تأخذ حيزاً يقارب تمام مـــساحة قلبه دون شريك .

***

لم يصدّق نفسه ، وهما يسيران متجاورين في شوارع الدولة العبرية .. لم يتجاذبا طرف أي حديث إلّا بعض الإرشـــادات التوضيحية له كسائح أول مرة يزور البلد .. تركتـــه "لنـــدا" للدّهشة التي استولت عليه ، وبدت علاماتها على محيّاه .. لماذا يدّعون عليها التعصّب والعنصرية ؟ .. لماذا يقولون إنها مختلفة؟. الشمس ذاتها بحرارتها وآشعتها وضوئها .. الهواء بلا اختلاف ، وبذات نسب الأكسجين ، وثاني أكسيد الكربون ، وغيرها من الغازات الأخرى التي لا نشعر بها .. المارّين إلى جوارهما أناسٌ عاديّون .. ذات الوجه الإنساني والقوام البشريّ ، والسير على الأقدام ، والابتسام من الشفاه ، والإشاحة بالـــذّراع .. لقـــد كانت رؤيته قاصرة على المظهر فقط !!!!!.

المحلّات كما هي على ضفتي الطريق بواجهاتها وبـــضائعها المعروضة .. السّيارات تسبح مسرعة في نهره .. الاخـــتلاف في نظافة الشوارع الملفتة للانتباه ، وكذلك في ارتفاع الأرصـــفة التي لا تتجاوز العشرة سنتيمترات ، فلا تشعر بهـــا - وأنـــت صاعد وهابط - في طريق سيرك .

وصلا إلى بناية شاهقة الارتفاع .. مدخلها الرّخامي البديع أضاف لها شموخاً فوق شموخ ارتفاعها .. دلفا مـــن بوّابتـــها الأمنية التي لفت نظره الكثير منها عند مداخل البنايات التي مرّا

بها !!! .. استقلا المصعد أيضاً متجاورين .. دون أن يواجهها :

– " أنا آسف على اللي حصل مني امبارح ."

– " ما في إشي حصل يجعلك تعتذر .. وها الحين انست في دوام عمل ما في مجال للأمور الشخصيّة ."

انفتح ستار المصعد ؛ ليواجها باباً زجاجياً ضخماص دخلا منه .. سمح لهما الأمن بالدخول بعد أن تعاملت "لندا" معهم .. سار "مصطفى" خلفها مشدوهاً مما يرى ولا يصدّقه ، ويسمعه ولا يفهمه .. أخيراً وصلا إلى بابٍ مغلق من خشب الأرو المصفّح ضد الطلقات النارية .. نقرت عليه نقرتان خفيفتان .. سمعا صوت إزالة متاريس من الداخل .. فتح لهما "شاؤول وجيه" (صاحب الصلعة العريضة والأنف الكبير ، والعين الضيّقة ، والشفتان الرقيقتان ، والجسد الممتلئ المائل للقصر).. أشار إليهما بالدخول مهللاً ومرحباً بهما بلهجة مصرية :

– " أهلاً .. أهلاً .. بريحة الحبايب ."

– " إنت عارف يا "مصطفى". إني أنا خريج جامعة إسكندرية ."

– " آه .. أهلاً وسهلاً ."

- " مالك كده متاخد ، ومتنشن زيادة عـــن اللـــزوم .. اسمع .. تعالى معايا ."

- " على وين ؟"

- " أوريه مكتبه ."

أخذه "شاؤول" من يده ، وسار بـــه خارجـــاً وخلفهمـــا "لندا" .. مروا على مكتبين مغلق أبوابهما ، وعند الباب الثالث وقف "شاؤول" ، وفتحه ؛ ليكـــشف عـــن أثـــاث غايـــة في الفخامة .. الحائط المواجه للباب زجاجي بكاملـــه .. خلفـــه مكتب رشيق وضع أمامه مقعدان من طراز الإستيل وإلى اليمين أنترية أمريكي الطّراز :

- " هو ده مكتبك يا سيدي .. في الأول تعرف الـــشغل بتاعنا ماشي ازّاي ، وبعد كده ح تتعود عليه .. الراتب حوالي ستميت دولار شهرياً ..المسألة مش صعبة وخصوصاً إن مصر أمّ القانون .. انت عارف إن مصر فيها أكتر من أتنين وتمـــانين ألفاً قانون وتشريع .. بس للأسف ما بيتطبقش حاجة منهم .. عجبك المكتب ؟"

- " سؤال ما هو في محله .. واللا إيه يا "مصطفى "؟"

- " ما فيش أحسن من كده ."

- " آه .. وعلى فكرة لو عايز تصلّي دي حاجة ما فيهاش خجل .. صلّ الفرض لمّا يدخل وقته .. لكن الفرض بـــس ..

السّنة لو بتصليها خلّيها لّما تروّح .. "لندا" حاولي تطلعيه من حالة الذّهول اللي هوّ فيها ."

تركهما "شاؤول" ، وخرج من مكتب "مصطفى" الجديد مغلقاً بابه خلفه بعد أن أدّى دوره المنوط به في ذلك اليوم .. أخذت "لندا" بيد "مصطفى" ، وأجلسته خلف مكتبه كأمّ تعلّم طفلها أولى خطواته في العالم الفسيح .. عادت هي لتجلس أمامه :

- "مش ممكن .. إيه اللي بيحصل ده ؟!!!"
- "الحياة اللي لازم تعيشها ."
- "ليه كل ده ؟ وإيه المقابل ؟!!!"
- "ولا إشي .. وإيش بتقول في المفاجأة الكبيرة ؟!"
- "اللي هيّا ؟"
- "أنا بريد أتجوّزك ؟"
- "إنتي بتقولي إيه ؟!! جواز ؟!! إزاي ؟!!!"
- "زيّ النّاس .. واللّا أنت بدّك تعيش في الحرام ؟"
- "مش الفكرة .. إنّما .."
- "اسمع حبيبي .. ما انكرش لو اتجوّزتك هكون سعيدة .. لكن لو انت بدّك جوازنا يصير على الورق ما في مشكلة ."

- "إنتي بتقولي إيه ؟!!"

- "اسمع حبيبي .. هو ده المقابل .. أنا عندي محل ماكياج ، وأدوات تجميل ، وشغّال منيح .. لكن لازم أقدّم نفسي لجيش الدفاع عشان أقضي مدة التجنيد بتاعتي .. ومن الأسباب اللي تعفيني من التجنيد جوازي من مصري .. القانون كده ."

- "وتقولي لي : "إن كل حاجة اتغيّرت !!!."

- "لازم أعترف إن فيه بعض العقليات جامـدة ، زي مـا هي .. وللأسف هي اللي ماسكة البلد ."

- "بس القرار ده مش سهل يا "لندا" .. وعايز تفكير ."

- "حقك طبعاً .. بس صدّقني لو كان قرارك بالرّفض مـا في شي بيتغير .. ولو كان بالموافقة .. مش راح تندم ."

***

- ٨ -

ما هو النّدم ؟ .. هل هو الحزن على ما تمّ بالفعـــل ؟ .. أم هو تمنّي لو أنّه لم يتم ؟!!!! .. هل هو جلد الذّات على مـــا تم اتخاذه من قرارات ؟!!! .. لم يعلم "مصطفى" حقيقة مشاعره ، وهو جالس بذلك المكتب معصوب العينين ، بعد أن أيقظتـــه أيادي غليظة من نومه .. سماؤهم مظلمة ، وأقمارها كـــثيرة في أيديهم تتركّز بنورها على وجهه .. اقتادوه إلى حيث جلس .. سئم كلّ شيء .. ملّ تلاطم أمواج الحياة على نفسه التي كلّت من الأحداث ، وأعيتها الحوادث .

جلس مغمض العينين مكبّل اليدين خلـــف ظهـــره .. وإلى جواره كلبٌ ضخمٌ يزمجرّ كلمّا تحـــرّك .. ممـــا زاد في قلبـــه الرّعب .. دخل عليه نفر من المحقّقين مـــع أحـــدهم ســـوطٌ سودانيّ .. رآه بأذنه عندما هوى لسانه علـــى الأرض عنـــد دخولهم إمعاناً في إرهابه ، ورعبه وفزعه قبلما يبدأ التحقيق :

- " إيه علاقتك بتفجيرات النّهارده ؟"

- " تفجيرات إيه ؟"

قبل الرّد عليه بلسان الإنسان ، أو لسان الكربـــاج دخـــل "شاؤول" غرفة التّحقيق ، ومعه أمر إفراج عن "مصطفى" :

- "ده أمر إفراج صادر من القاضي يؤكد بـــراءة مـــوكّلي السيد "مصطفى راضي عبد المعز" .. وأنه ليس له أيّ دخـــل بتفجيرات موقف الباصات ."

خرج "مصطفى" بعد ساعات من الرّعب الرّهيب لم يعلم عددها ، وخلفه "شاؤول" الذي تبدّلت ملامح الضّابط معه ، وأشار له بعلامة النّصر في سرعة خاطفة دون أن يراه "مصطفى" ؛ ليجدا "لندا" في الانتظار ؛ لترتمي في حضن "مصطفى" بمجرد رؤيته :

– " حمد الله على سلامتك يا عيوني ."

وهي بين أحضانه ، وهو لازال في تلك الحالة من الذّهول نظر إليها :

– " هو إيه اللّي حصل ؟!!!"

– " الفلسطينيين عملوا عملية إرهابية .. إرهابي منهم فجّر حاله في موقف الباصات الرئيسي .. مات عشرات وانجرح ميّات ."

تركهما "مصطفى" بعد أن تملّص من حضنها .. هام على وجهه لا يدري إلام المسير ؟ .. أين الهدف ؟ .. ومتى يكون الوصول ؟ .. تبعته "لندا" بلا كلام .. انتهى بهما المطاف بحديقة عامّة .. جلس "مصطفى" على أريكة ، وقد شابك أصابعَ كفّيه متوسّدًا بهم رأسه التي رجع بها للخلف نـاظراً إلى السماء ، وإلى جواره جلست "لندا" كأنها عدم ، احتراماً منها لما هو عليه ، أو هكذا أبدت .

ودّع القمر ، واستقبل ما أرسلته الشمس من ضياء قبل أن تستيقظ هي ، وتحل على عرش سمائها .. فتحت عينها على الأرض باعثة نظرتها التي تنير الأرض كلّ صباح .

قام "مصطفى" من جلسته تاركاً "لندا " الـتي قبعـت إلى جواره طوال الليل ، وحتى قيامه متدثّرة بمعطفها دونما التطـرق إلى لغة الكلام وحديث الشفاه .. قام مغادراً وحـده ،كأنـه قضى ليلته دون شريك .. ذهب إلى مكتب "شاؤول" ، ودخل عليه بعد فض متاريس الباب .. عاد للجلوس خلف مكتبه يقرأ في أوراق أمامه ؛ ليعطي "مصطفى" فرصةً لالتقـاط أنفاسـه المضطربة .. بدا على "مصطفى" الإرهاق ، وعدم النّوم إضافة إلى أنه غير مستوعب الموقف حتّى الآن .. و لم يستطع أن يتخذ قراراً :

- " وشّك باين عليه الإرهاق .. إنت ما نمـتش امبـارح كويس ، واللّا إيه ؟"

- " أنا ما نمتش امبارح أصلاً ."

- " ليه كده ؟ !"

- " أنا عايز أرجع مصر ."

قام "شاؤول" من خلف مكتبه ، وجلس أمام "مـصطفى" دون أن تظهر عليه علامات المفاجأة .. ما سمعه كـان ينتظـر سماعه :

- " أوي .. أوي .. اوعى تفتكر إن وجودك هنا ، هيكون ضد رغبتك .. بس ممكن أسألك سؤال ؟"

- " اتفضّل ."

- "ح ترجع مصر ليه ؟! .. ولمين ؟ وعشان إيه ؟ .. واسمح لي .. خلّي كلامنا موضوعي ، وحيادي وبعيد عن تعقيدات احنا في غنى عنها ."

- " أنا مش مستريّح هنا ."

- " وانت لحقت تقعد أصلاً هنا .. ده همّا كام يوم .. ولّا موقف امبارح زعّلك ؟"

- " مش مسألة زعّلني .. ممكن تقول خوّفني .. حسّسني إني مش مجرد وافد أجنبي زي ما فهمتوني .. إنما عدو .. أي حاجة ممكن تحصل أتشد فيها ."

- "ده كلام مش مظبوط .. والدليل على كده إن أمن الدولة ، والمخابرات في مصر ممكن تعمل فيك أكتر من كده بمجرد وصولك ؛ لأنهم شكّوا فيك رغم إنك مواطن .. والمفروض ليك حقوق ."

- "وإيه الفرق ؟"

- "الفرق إن أمر الإفراج خرجك معايا .. وده بيتهيأ لي ما بيحصلش في مصر ، حتى لو معاك حكم قضائي مش أمر إفراج .!!"

ارتسمت على وجه "مصطفى" علامات الاقتناع ، وكأنه تذكّر ما حدث له مع "مفيد" ، و"أحمد السلحدار" .. قرأ "شاؤول" ذلك على وجه "مصطفى" ، فاندفع مكملاً :

- " اللي عايزك تفهمه : "إن الموضوع أتفه من كده بكتير .. واللّي حصل ده ممكن يحصل في أي حتة في العالم .. يا لّلا .. يا لّلا قوم نام واستريّح .. ونصيحتي ليك خد الأمور ببساطة أكتر من كده .. وبص لإسرائيل على إنها زي أي دولة أوروبية ثانية .. صدقني ح تستريح كتير .. ولو حبيت ترجع مصر في أي وقت ما فيش أي مشكلة .

خرج "مصطفى" من العمارة ليجد "لندا" في انتظاره جالسة في سيارتها .. بدا عليها هي الأخرى الإرهاق وعدم النوم .. أحنى رأسه لها ؛ ليحادثها من خلال نافذة السّيارة :

- "إنتي ما روحتيش ليه ؟"

- "لفّيت في الشّوارع كيف المجنونة أفكر فيك ، وفي اللي حصل لك ."

- " وبعدين ."

- "ح تيجي معاي مشوار كتير بيهمك .. وبيريح بالك ."

- " فين ؟"

- "نقابل الأستاذ مهند جباعته ".

- " مين ده ؟"

- " رجل أعمال من عرب ٤٨ ."

***

- ٩ -

أمام فيلا جميلة تشتاق النّفس لسكناها بحديقة مزهرة ترتاح العين لورودها اليانعة ، وشذا عبيرها الأخّاذ .. كأنها انتزعت من لوحة بديعة أتقن صاحبها رسم كلّ شيء فيها بدقة الإتقان، ولغة الجمال ..

توقفت سيّارة "لندا" ، وترجّلت منها مع "مصطفى" ؛ ليدخلا اللوحة متجهين إلى الحديقة الصغيرة .. سارا على ممر من الحصى المؤدّي إلى باب الفيلا الذي فُتح قبل أن يصلا إليه .. ظهر منه رجل في العقد السادس من عمره طويل ممشوق القوام واسع الصدر والعينين ، والفم كذلك .. ظهر هذا جلياً من ابتسامته الواسعة التي كادت تصل ما بين أذنيه :

- " صباح الخير أستاذ مهنّد ."

- " صباح الخير لندا ."

- " هادا الأستاذ "مصطفى" المصري اللي خبّرتك حكايته ."

- " أهلين خي "مصطفى" .. كيف الحال ؟"

- " الحمد لله ."

- " اتفضّلوا .. اتفضّلوا .. أهلين وسهلين ."

دخل الجميع إلى بهو الفيلا المصمّم على الطّراز الأمريكي .. جلسوا على أنترية من جذوع الأشجار :

- " اسمع خي "مصطفى" .. "لندا" خبرتني بإصتك كلها .. مجرد وجودك في "إسرائيل" يشعرك أنك خاين لبلدك .. مـو هيك أنت حاسس ؟"

- " مش عارف .. إنما ....."

- " لا ، إنّما ، ولا كيفما .. هو ده شـعورك ، وهـو ده اللي مخرّبط حالك .. لكن أحب أقولك دي كلّها أوهـام في خيالاتك خي "مصطفى" ."

- "إزاي ؟"

- "لأن مصر عارفة انّك هنا .. وباكر حاخدك للـسّفارة المصرية .. تثبت وجودك وإقامتك الآنونية في إسرائيل .. وزي ما بتقولوا في مصر .. يا دار ما دخلك شر ."

- " مش معقول .. وده ممكن ؟!!!"

- " ولاه .. إن غداً لناظره قريب ."

الفصل التاسع

الميـــــلاد

- ١ -

انخرط "مصطفى" تماماً في العمل بمكتب "شاؤول" .. أعطى له كلّ اهتمامه ووقته ، وتركيزه حتى صار أبرز المحامين بالمكتب في التكييف القانوني وكتابة المذكّرات .. لاسيّما بعد أن صدّق ما قاله له "مهند جباعته" .. لم يعد للخوف بداخله مكانٌ بعد أن دخل السّفارة المصريّة ، وأعلمهم بوجوده .. كلّ ما هنالك : " أنّهم أخذوا جواز السّفر القديم ، وأعطوه جوازاً جديداً ، وأنهوا له كافّة الإجراءات في ذات اليوم بعد أن تكررت نصائحهم له بالعودة لوطنه مصر .. أحسّ أنه لا توجد قوة على وجه الأرض بعد ذلك تستطيع أن توقف مسيرة نجاحه .. شعر أنّ بمقدوره أن يخطّ قدره بما يريد أن يكون .

جلس منهمكاً في مطالعة الأوراق التي أمامه على مكتبه ، وتدوين ملاحظاته عليها بإهتمامٍ شديد .. لم يشعر بوجود "شاؤول" أمامه واقفاً مبتسماً :

- " أنا شايفك اندمجت في الشّغل بسرعة ."

- " كلّه بفضل توجيهاتك يا أستاذ "شاؤول" ."

- " طيب يا اللا .. عندك جلسة في المحكمة ."

- "بس أنا ماليش حضور أمام القضاء الإسرائيلي ."

- "حضورك جلسة النّهارده مش بصفتك "محامي" ، إنّمـــا بصفتك "مدّعي" .. أنا رفعت دعوى علـــى الـــضّابط اللـــي اعتقلك ساعة تفجير موقف الباصات ، بموجب التوكيل اللـــي أنت عامله ليّا زي زمايلك في المكتـــب ، والنـــهارده جلـــسة الحكم .. أنا حبيت تيجي معايا عشان تسمع الحكم بنفسك .

- " ما كنش له لزمة .. الموضوع انتهى خلاص ."

- " الكلام ده هناك .. إنما هنا فيه ديموقرطية بجد ، ياللّـــا بينا ."

***

- ٢ -

دخلا قاعة المحكمة المصمّمة على ذات طراز قاعات المحاكم الأمريكيّة .. جلسا على أريكة خشبية في الصف الأوّل إلى اليمين ، بينما جلس الضّابط ، وإلى جواره المحامي الخاصّ به على الأريكة المجاورة لهما بذات الصف .. جلس خلفهما "حاخام إسرائيلي" ارتدى الزّي التقليديّ الأسود ، والقبّعة على رأسه متدلّية من تحتها جديلتين ، وإلى جواره جلس شابٌ في عقده الثاني متململاً في جلسته .. خرج القاضي وجلس على المنصّة .. فتح الملف ، وقرأ منطوق ما أمامه من أحكام :

- " القضيّة الأولى .. "أبرام باراك" ."

وقف الشاب الجالس إلى جوار "الحاخام" بثقة ، وتثاقل .. كأنّه قد تفضّل على المحكمة ، ووزارة العدل ، والعدالة ، ودولة العدوان بأسرها بحضوره لسماع الحكم عليه .. نظر إليه "القاضي" مبتسماً ابتسامة تشجيع ، واسترضاء مكمّلاً تلاوة منطوق الحكم :

- "حكمت المحكمة بمعاقبة السّيد "أبرام باراك" بالعمل العام في أي جهة يحددها بنفسه مدة عامٍ من تاريخ هذا الحكم .. وذلك لارتكابه جريمة قتل غير مبرّر ضد كل من : السّيّد "محسن عرفات" ، وزوجته "هاجر محمد" وبناته "سارة" و

"مريم" و "خديجة" .. وفقاً لقانون دولة إسرائيل لمن يقتل عربي على أراضيها .. هذا الحكم نهائيّ ، ولا يجوز الطعن عليه ."

فور انتهاء القاضي من تلاوة منطوق حكمه خرج الشابّ بصحبة "الحاخام" ، ومعهما ثلاثة آخرون من القاعة رغم مخالفة ذلك للقانون .. ابتلع معتلي منصّة القضاء ذلك الازدراء بصعوبة بدت عليه ، وأكمل ما هو عليه :

- " القضية الثّانية .. "ديفيد موشي". "

قام الضّابط بذات الوقفة التي قام بها الشاب .. كأنّ كل المتّهمين هنا يتفضلوا على العدالة - إن وجدت - في تلك الدولة بحضورهم .. استرسل القاضي :

- " حكمت المحكمة بتغريم السّيّد : "ديفيد موشى" في الدعوى المقامة من السّيد : "مصطفى راضي" بالغرامة التي قدّرتها المحكمة .. ويحق للأخير المطالبة بالتّعويض بدعوى مستقلّة .. هذا الحكم غير نهائي ويحق للأطراف استئنافه .. رفعت الجلسة .

***

جلس "فوزي" ، وقد تملّكه الرّعب .. المكتب الذي جلس أمامه عليه كرباج سوداني ، وإلى جواره عصا غليظة .. نظر إليهما في فزع ، ولم يستطع أن يبلع ريقه .. حاول أن يستجمع شجاعته ، ويلملم شتات نفسه ، لكنه فشل .. هو لا يعلم أين يجلس ؟ ، لكنه متيقّن أنّه في إحدى مقارّ الدولة الأمنية الخاصة بأمن الدولة ، وحفظه ، التي لم يعلم مكانها لعصبة عينيه أثناء الذّهاب بعدما تم اقتياده من مكتبه .

كان منشغلاً بالأوراق التي على مكتبه ، وروتين عمله بوزارة الماليّة بعد أن صار رئيس قسم المتابعة .. تزوّج وأنجب "مريم" .. موجة الجذر شملت رأسه كلّها ، وتركت له بعض شعيرات دليلاً على أن تلك المنطقة كانت على غير حالة التجرّد التي هي عليها الآن .. نحيفاً كما هو ، لم تتسلّل البدانة إليه .. لم يترك الحارة ، بل تزوج في شقّة أمّه التي لحقت بأبيه في زيارته الأبدية للعالم الآخر قبل قدوم "مريم" بشهرين .. الخميس القادم الذّكرى السنوية الأولى لها .. لم يعد له في دنياه إلا "زوجته وابنته" .. لم يستطع أن يتحاوز حدّ المعرفة ، والزّمالة مع أيّ شخص .. مكانة "محيي" ، و "مصطفى" ظلّت شاغرة داخل قلبه .. فجأة أظلمت الدنيا أمام المكتب ، وحجب عنه الضوء الآتي إليه من النّافذة ذات الضلف العالية المهشم نصف زجاجها .. رفع رأسه في مسيرةٍ عالية استقرّت

عند وجهين وضعا فوق أكتاف ، تكوين بشريّ الشكل ، صخري الملمس ، حيواني العقل .. اقتاداه إلى حيث يجلس .

دخل عليه الرّائد "شريف الشربتلي" مرتدياً بنطالاً جينز بداخله قميصٌ شمّره عن ساعده .. جلس خلف مكتبه الجالس أمامه "فوزي" :

- " أهلاً يا أبو الفوز .. مالك يا راجل .. إنت خايف كده ليه ؟"

- " لا خايف ولا حاجة سيادتك .. بس .. أصل .. لأ أنا خايف حضرتك .. صدّقني أنا ما عملتش أيّ حاجة .. ده أنا حتى عضو في الحزب الوطني !!!."

- " عارفين .. والله العظيم عارفين كلّ حاجة .. وسبب وجودك هنا ما لوش دخل بيك خالص ."

- " خير يا فندم ؟"

- " مصطفى راضي عبد المعزّ ".. تعرف حد بالاسم ده ؟"

- " أيوة حضرتك .. إحنا كنّا زمايل في كلّية الحقوق .. بس بعد ما اتخرّجنا بشوية .. حصل موضوع كده ، ودخل بسببه السجن ، ومن ساعتها ما شوفتوش ."

- "موضوع إيه ده .. يكونش قصدك موضوع الألف جنية حساب أبوه لمّا حجزوه في التلاجة ، وضرب العامل بتاعها والدكتور ؟."

- " تمام يا فندم .. هو كده بالظّبط ."

- " وانت قطعت علاقتك بيه ليه .. إنت صدّقت اللي قاله "محيي" ليك عن "مصطفى" .. وإنه طلب من "محيي" يبيع جثة أبوه عشان يفك زنقته ؟"

- " إنت عارف دي كمان؟!!! .. بصراحة لما "محيي" قالّي كده .. الاثنين سقطوا من نظري ، وقرّرت أقطع علاقتي بيهم ."

- "على فكرة "مصطفى" مظلوم .. اللي خطّت ودبّر وقبض "محيي" من غير ما "مصطفى" يعرف .. "مصطفى" فاكر لغاية دلوقتي إن أبوه مدفون في تربته ."

- " على فكرة .. أنا سمعت إنّهم سافروا اليونان ."

- " مصطفى" بس اللي سافر .. "محيي" غرق قبل ما يوصل ."

- " طيّب .أنا إيه مطلوب منّي سيادتك ؟"

- "مصطفى" سافر إسرائيل مش اليونان .. وهو مقيم فيها دلوقتي ."

- "إسرائيل ؟ .. يا نهار إسود !!!."

- " على كلّ حال المطلوب منك .. لما "مصطفى" يتّصل بيك ، وهوّ أكيد هيتّصل بيك .. قول له يا ريت يرجع لبلده ؛

لأنّ اللي هو بيعمله ده عيب ، وما يصحّش .. مصر فيها مشاكل ، بس مش جحيم .. وإسرائيل مش دولة النعيم ".

- " طيب .. بعد إذن سيادتك .. لو سمحت لي .. هو أنتوا مش ممكن تجيبوه " .

- " ممكن أوي .. نجيبه ، ونصفيه كمان لو عايزين .. بس مصطفى مش عميل أو جاسوس ، مصطفى مضحوك عليه ، والفرق كبير يا أستاذ فوزي .. فهمتني " .

- " تحت أمرك يا فندم ."

- " مع السلامة " .

***

- ٤ -

رقدت "لندا" على سريرها ، وإلى جوارها مهـــد طفليهـــا التوأم.. لم ينل إجهاد المخاض وآلامه من جمالها ، بل أضـــاف ذلك الشّحوب الطافي على وجهها نوعاً فريداً من الجمال ،كما لو أنّ نضارتها كانت تخف من تركيز ذلك الحسن الفتّـــان .. دخل عليها "مصطفى" الحجرة دون أن ينقر على الباب علّهـــا نائمة ، فلا يزعجها هي ، أو ملاكيها المحلّقين في مهـــديهما .. وقف أمام المهد ينظر إلى الطفلين .. أوّل مرة يرى قطعةً منـــه خارجةً ، ومنفصلة عنه ترقد في سلام .. فاضت دموع قلبـــه حتى سال ماء عينيه على وجنتيـــه .. لم تطاوعـــه يـــده في أن يلمسهما رغم ذلك الأمر المنكرّر من عقله في أن يمـــسهما .. قبل أن يحرّك يده شعر ببرودة يد "لندا" تـــضعها علـــى يـــده ضاغطةً عليها دون أن تفتح عيناها ، وكأنّها شعرت بوجوده .. ابتسم دون أن يمسح دموعه .. انحنى عليها مودعاً قُبلـــة علـــى جبهتها الوضّاءة التي فتحت له باب ذكرى لقائهما قبل عشرة أشهر :

- "تتجوزيني ؟"
- " طبعاً ."
- " بس لازم نتفق الأوّل ."

- " اللي بدك إيّاه . أنا موافقة عليه ؟"

- " لازم تشهري إسلامك ، لو كنتِ عايزانا نتجوز ."

- " القرار ده مش هيّن "مصطفى ."

فكّرت كثيراً ، أو هكذا بدى عليها .. استشارت "شاؤول" فيما لم يكن مُدرج في الحسابات .. شرح لها موقفه من الأديان بخلاف اليهودية ، لكنّه شجعها .. لن يغير هذا في الأمر شيئاً .. أخذت القرار .. أشهرت إسلامها .. اختارت لها اسم "آمنة" .. دخلت على "مصطفى" بدون مقدّمات ، وقد تبدل مظهرها من النّقيض إلى النّقيض .. خلعت الملابس الضيّقة التي لم تكن لتترك الضئيل من مفاتنها لتبديه وليس بمفاتنها من ضئيل ! .. تخلّت عن جمال شعرها ، وتسريحاته المنطلقة وتصفيفه كثيراً بتركه مرسلاً دون تصفيف .. ارتدت طرحة عليه .. كسا جسدها رداءاً فضفاضاً واسعاً تطفئ سعته نار أنوثتها الطّاغية :

- " أشهد أن لا إله إلا الله " و "أن محمد رسول الله" ."

- " باقتناع يا "لندا" ؟"

- " أنا عمري ما سويت إشي ضد قناعتي .. المهم تفضل جنبي ."

- " ما فيش حاجة ممكن تفرّقنا بعد النهارده يا حبيبتي ."

- " بس فيه شي لازم تعرفه ها الحـــين .. أنـــا إســـرائيليّة مسلمة .. يعني كيف ما راح أنسى إنّي مـــسلمة لازم انـــت كمان ما تنسى إنّي إسرائيلية ."

لم ير تفتُّح عيناها كوردة ندية من غشاوة ما حلّ على عقله من ذكرى .. أحسّ بأناملها الرقيقة ، وهي تمسح وجنتيه :

- " شو رأيك .. فرحان ؟"

- " طبعاً ."

- " إيش راح تسمّيهم ؟"

- " حسن وحسين .. إيه رأيك ؟"

- " اللي بدك إيّاه يا حبيبي ."

سمعا نقراً خفيفاً علـــى البـــاب بعـــدها لاح مـــن أمامـــه "شاؤول" .. دخل سعيداً مبتسماً ، وفي يده مجموعة بديعة من الزهور ، والورود الرائعة وضعها جوار "لندا" .. وقف أمـــام المهد :

- "شالوم" .. حمد لله على السّلامة .. مبروك ."

- " الله يبارك فيك ".

- " هه سميتوهم إيه ؟"

- " حسن وحسين ."

- " المفروض كنتم تسمّوهم : "آدم " و "إبرام" عشان ما حدش يزعل ."

- " بس أبوهم وأمهم مسلمين .. مو هيك .. ولا أنت نسيت ."

- " المهم يا "مصطفى" .. ما تنساش تروح السّفارة المصرية عشان تقيّدهم ، وتطلّع لهم وثيقة ميلاد كرعايا مصريين ."

- " إن شاء الله ."

***

- ٥ -

دارت الأرض في فلكها حول الشمس سبع دورات كاملة .. وقف "مصطفى" في شرفة غرفة مكتبه بمنزله الجديد .. الصبح على مشارف التنفّس .. جافاه النوم .. تغيّر حاله من حالٍ إلى حال .. أصبح شريكاً ل-"شاؤول" في مكتب محاماة كبير بنسبة الثلث .. أعطته الحياة الكثير بعد أن تعرّف على وجهها البهيّ .. أو هكذا اعتقد دون أن يعرف ما خطّه له القدر .. لكن الشّوق الذي لم يفارقه زاد عليه ، وناداه .. لازمه السُّهد .. كابده كثيراً لكنّه كمده .. حنينه إلى مصر لم يعد يحتمله .. هل سيبقى هنا الباقي من دهره ؟ .. هل سيحرم عيني ولداه من رؤية وطنهم ؟ .. لقد جنى مالاً يجعلهم في الطليعة بعد أن كان نكرةً على هامش الحياة .. نصحته "لندا" بأن يستشير "شاؤول" في ذلك الموضوع الشّائك والذي كانت نصيحته له :

- " لو رجعت مصر السّلطات المصرية مش ح ترّجعك تاني إسرائيل ."

- " إزّاي ؟! أنا شغلي وبيتي وعيلتي هنا ."

- " ملهاش إلّا حل واحد ما فيش غيره ."

- " الحقني بيه إعمل معروف ."

– " تاخد الجنسية الإسرائيلية .. وبكده تقدر تزور مصر بصفتك مواطن إسرائيلي نازل مصر سياحة .. وفي الحالة دي مش ممكن حد يقدر يقول لك تلت التلاتة كام ."

لم يكن وقع هذا الكلام هيناً عليه .. اعتناقه الإسرائيلية معناه : "تسليمه بالأمر الواقع الذي تفرضه إسرائيل" .. مفاده ضياع الثّوابت التي بداخله .. ولكن هل هناك ثوابت في هذا الكون المتحرك ؟! .. هكذا اعتقد .. مزّقته الحيرة ، واغتاله القلق ، وسلب عقله الأرق .. أنقذه "مهند جباعتة" من هذا كلّه بترتيب لقاء له مع رجل الأعمال المصري "لبيب الصاوي" في أحد فنادق تل أبيب .. كانت دهشة "مصطفى" غامرة عندما رآه .. إنه يخالط رجال السّياسة المصريين ، ويختلط بهم في اجتماعاتهم :

– " أنا بشوف صورك ، وأخبارك منشورة في الجرايد ، وكمان بشوفك في التليفزيون ."

– " وإيه يعني ؟ .. أنا من كبار رجال الأعمال في مصر والشرق الأوسط ."

– " خي "لبيب" .. كيف ما خبّرتك عن موضوع خي "مصطفى" .. إيش بتنصحنا ؟"

– " إسمع يا أستاذ "مصطفى" .. الدنيا دلوقتي بقت قرية صغيرة .. وكل قرية وليها عاداتها وتقاليدها .. والقاعدة في

العالم دلوقتي ، شوف مصلحتك فين ، ومع مين .. واللّي ممكن يفيدك خليك معاه .. يعني بالاختصار وطنــك وانتمــاءك في المكان اللّي فيه مصلحتك .. مش في حتة تانية ."

نزلت كلمات "لبيب الصّاوي" برداً وســلاماً عليــه .. أضحت من ثوابته المتحرّكة .. دخلت عليه "لندا" ، وهو لازال على وقفته أمام النافذة .. كان الصبح قد تــنفّس واســتلمت الشمس دوامها ، واستقرّت في سماء ربّها .. نظر إليها مبتسماً واستقرّ في حضنها .. قرأت قراره في عينيه بعدما خطّه القــدر على جبينه .. أخذته إلى غرفة النوم .. مهّدت أرضها لــه .. زرع نفسه فيها .. ارتوى من عذب مائها كسيفين في غمــدٍ واحد ."

***

خرج "شاؤول" ، و "مصطفى" من بناية ضـــخمة ، وقـــد بدت عليهما علامات السّعادة .. ارتدى "مصطفى" حُلة غاية في الأناقة كست جسده .. حجبت عيناه نظارةٌ شمسيّة سوداء جعلته يبدو كرجال المخابرات .. نزل سُلّماً كبيراً .. في نهايته كانت "لندا" منتظرة .. وقفا أمامها .. أخرج "مصطفى" جواز السفر الإسرائيلي من جيب سترته .. أخذته لندا بسعادة بالغة ، وفتحته لتقرأ البيانات المدوّنة به بصوتٍ مسموع .. كأنّها تريد أن تزفّ للعالم ذلك الميلاد الجديد :

- " الاسم : "مصطفى راضي عبد المعـــزّ" .. الجنـــسية : "إسرائيلي" .. الدّيانة : "مسلم" .. مبارك يا حبيبي .. مبـــارك عليك إن شاء الله ."

- " الله يبارك فيكي يا أمّ حسين ."

- " دلوقتي تقدر تسافر أي حتة ، وانت رافع راســـك .. ومحدش يقدر يقولك بم ."

- " متشكّر جداً يا أستاذي ."

رافعاً ذراعيه بشدّة كهيئة "سيّد فولة" عند دعائه له بالنّجاح في الامتحان .. بصوت جهوري طنّ في أذن كافّة المارّين مـــن حوله :

- " مصر .. هي مصر .. جاي لك يا مصر .. جاي لـــك يامّه ."

الفصل العاشر

المحطّة

حطّ الطّائر المعدنيّ الضخم على ممر الهبوط ، وقد زان ذيله تلك الصّورة التي تتخذها شركة "مصر للطيران" شعاراً لهـــا .. هدأت الطائرة تماماً .. توقّفت عجلاتها عن الـــدوران إيـــذاناً بتوقّف رحى الذكريات الدائرة بعقل "مصطفى" عن التوقّف .. أضاءت أنوار الأمان التي يستطيع المسافرون التحرّك معهـــا .. قام يحدوه الأمل الكبير ، والشّوق البالغ ، والخوف المحـــيط ، والشّك المرتقب .

وقف في صف من المسافرين الأجانب الذي صار منهم أمام نافذة زجاجيّة جالس خلفها ضابط الجوازات ، وخلفه "لندا" ، ومعها "حسن وحسين" .. نظر ضابط الجوازات إلى جوازات السفر الإسرائيلية التي أمامه وتمعّن فيهـــا .. أعـــاد النظـــر إلى "مصطفى" ، ثمّ أشار إلى شخص بُعث في وقفتـــه إلى جـــوار "مصطفى" هامساً له :

- " إتفضل معايا . لو سمحت ."

- " ممكن أعرف إيه الموضوع ؟"

- " حضرتك في المكتب ح تعرف كلّ حاجة ."

اقتادهم ذلك الهامس إلى مكتب أجلسهم فيـــه .. جلـــس "مصطفى" أمام المكتب ، وأمامه "لندا" ، وعلـــى أريكـــة في

مواجهة المكتب نام "حسن وحسين" .. توقّع "مصطفى" ذلك الأمر ، وتلك المعاملة عند نزوله .. المجتمع المصري لا يغيّر ثوابته أبداً مهما قدمت ، أو بَلِيَتْ ،حتى وإن كانت على خطأ .. هكذا كان اعتقاده .. توقّع شيئاً من المعاملة السيّئة المصحوبة بضيقٍ وامتعاض .

ما لم يتوقّعه ، وهوى على عقله كصاعقة سحقته ، وذّرت رماده في ريحٍ صرصرٍ عاتية .. لا تبقي هدوءاً إلا قلبته هياجاً ، ولا تذر سكينةً إلا جعلتها كماردٍ من نار .. ألجمته الدّهشة ، وعقدت لسانه بحبال الخرس عندما دخل عليهم صاحب تلك الذّكرى التي قلبته من موجب كما خلقه الله إلى سالب كما هوى القّهر ، وبغى :

- " إزيّك يا درش .. شوفت الدنيا صغيرة ازّاي .. على فكرة "حمدي النّاشف" بيسلّم عليك ."

ابتسم "مصطفى" ابتسامةً مريرة خفّف مرارتها ، قدرته الآن على المواجهة ، وردّ الصاع صاعين لمن يريد :

- " إنتوا مش ح تبطلوا شغل الإرهاب والبلطجة ده بقى؟"

بانفعالٍ محسوب هوى "مفيد" على سطح مكتبه بقبضته :

- " بتقول إيه يا روح أمك ؟"

بانفجار بركان غير ممكن حسابه تدفّقت حممه .. قام "مصطفى" من جِلسته ، وهوى بكلتا يديه على المكتب أمام "مفيد" :

- " بقول اللّي سمعته يا حيلة أهلك .. واعرف انت بتكلّم مين.. إمبارح كنت عايز عضو مجلس نقابة .. عرّفتني بعضو تاني.. النهارده أنا عايز ممثّل من السفارة بتاعتي .. وأي كلمة خارجة منك مش ماشي من مصر من غير ما آخد حقي منّك .. القديم والجديد ."

تراجع "مفيد" قليلاً عن مسار الحمم ، وحاول أن يصنع حاجزاً ثلجياً من هدوئه المفتعلّ :

- " بتتحامى في مين يا "مصطفى" ؟ .. ده المتغطّي بيهم عريان ."

- " وأنا صراحة كنت دفيان هنا أوي !!! .. على كل حال البركة فيك ، مش انت أوّل اللّي عرّاني ."

قبيل التقاء حمم اللّظى الثائرة مع غليان الحاجز الثلجي .. قطع الطّريق ، ووقف بينهما :

- "ميشيل يعقوب" .. مندوب سفارة إسرائيل .. ممكن أعرف يا سيادة العقيد إنت محتجز واحد من رعايا دولة إسرائيل وأسرته ليه ؟! .. الأوراق فيها حاجة ؟"

- " فيه قرار صادر بسحب الجنسية المصرية من الأفنـــدي ده ."

- " بدون تحكّم لو سمحـــت .. لا ده المكـــان .. ولا دي الإجراءات يا سيادة العقيد .. "مصطفى" بيه من رعايا دولـــة إسرائيل ، وداخل الأراضي المصريّة كزائر سياحي لمصر .. وما فيش قرار صدر بمنع دخوله مصر .. وأظن التأشيرة اللى علـــى جواز سفره بتثبت ده " .

- " مصطفى" بيه .. هو بقى بيه ؟ الله !!"

اخرج "مصطفى" جواز سفره المصري قبل أن يشتعل مـــن الحمم المنصهرة ، وألقى به أمام مفيد :

- " اللّي زيك همّا اللّي خلّونا أغراب في بلدنا ، لغاية مـــا طفّشونا منها .. اقعد بقى على تلها .. "شالوم ."

بصلف المنهزم ، وابتسامة الحزين ، وقوّة المنسحق ، وكبرياء المنبطح أخذ جواز السفر من على سطح المكتب :

- " ح نتقابل تاني .. أكيد ح نتقابل تاني يا "مصطفى" ."

***

- ٢ -

أمام ذلك الفندق الرّابض إلى جوار النّيل العظيم وقفت تلك السّيارة الفارهة التي ترجّل منها "مصطفى" ، وأسرته الجديدة .. اتّجه الجميع إلى داخل الفندق حيث جلست "الندا"، ومعها "حسن وحسين" على إحدى الأرائك في بهو الفندق ، واتجه "مصطفى" ، و"ميشيل" لمكتب الاستعلامات :

- " فيه حجز باسم "مصطفى راضي عبد المعزّ" .. رويال سويد ."

بحث الموظّف الواقف خلف ذلك الحاجز الرّخامي على الكمبيوتر الذي أمامه ليجد الاسم بذات الحجز :

- " تمام يا فندم .. رويال سويت ٥١٢ الدور العاشر ."

قبل أن يغادر ، نظر "ميشيل" بغضب وانفعال لـ-"مصطفى" ، وفجّر غضبه المكتوم منذ خروجهم من مكتب "مفيد" في "مصطفى" :

- " لازم تيجي وسط فوج سياحي .. ما تجيش لوحدك تاني .. إنت فاهم .. المهزلة اللي حصلت النهارده مش عايزها تتكرر تاني ."

ألقى كلماته ، وغادر غير آبه بالرّد الذي لم يخرج للوجود .. لم يردّ "مصطفى" ؛ لأنه شعر أنّ ما سمع لمصلحته

وأمنه !!! ، وليس تأنيباً سلبياً !!! .. هكذا أيضًا كان اعتقاده !!! .

أشار إلى زوجته وولديه مبتسماً ، واتجه الجميع إلى المصعد ؛ ليستريحوا من عناء ما لاقوه من وعناء السفر ، وكآبة المنظر .

جلس "مصطفى" على مقعد وثير أمام نافذة كبيرة تطلّ على النّيل مباشرة .. غرق في تفكير عميق .. بدت على قسمات وجهه علامات الحزن المرير .. لم يشعر ب-"لندا" عندما دخلت عليه .. أحاطت عنقه من الخلف بذراعيها :

– "مالك يا "مصطفى"؟ إيش بيك حبيبي ؟"

– " البلد دي ما عدتش بلدي ."

– " ليش بتقول هيك ؟"

– " من غير ليه .. طعم الغربة في حلق الواحد من قبل ما يسيبها ."

– " والله .. إحنا جايين من شان نتفسح ، والـلا نعكر صفو حياتنا ، ونضيم حالنا ؟ !"

– " مش قادر أرتاح يا "لندا" .. مش قادر ."

– " عارف إنت امتى بتصير مرتاح البال ؟"

– " إمتى ؟"

- " لّما بيصير لك مكان بتاعك .. مِلك في مصر .. كيـــان ملكك يخليـــك كـــبير في عيـــون النـــاس .. "أراضــــي" .. "عقارات" .. الناس هون ما بتيجي غير ع الـــضعيف .. أمـــا صاحب المال والجاه ما حدن بيجرؤ مجرّد يسير أمامـــه بـــدون رغبته ."

***

- ٣ -

تسير الحياة بأحداثها السّعيدة الحلوة والحزينة المُـرّة ، فـلا تبقى حلاوة السعادة ، ولا مرارة الحزن ولكن تبقى الـذكرى بتجرّدها .. كم من حادثة حزينة في وقتـها مـرّت ذكراهـا فكانت نتيجتها الابتسام .. وكم من حادثة مفرحة سـعيدة في حينها مرّت ذكراها ، فلم تستطع أن تخرج من طيّ النّسيان .. ما يخطّه القدر له حساباته في حينه ، أو ما يسمّى : "مرحلـة الواقع" ، ويكون له حسابات أخرى مختلفة تماماً بعد ذلك قـد تصل لدرجة التضادّ عندما يصير في مرحلة الذّكرى .

جلس "فوزي" حزيناً في حجرة نومه ، ودموعه تسحّ مـن عينيه أمام الصّورة المتخيّلة للسيّدة العـذراء .. قابـضاً علـى الصليب .. لم تشفع توسّلات زوجته "ماتلدا" وابنته "مـريم" ؛ ليفكا أسره الاختياريّ ، ويجعلاه يتناول الغداء معهما .. كـان لقاؤه ب-"مصطفى" صعباً على نفسه .. جرح الحبيب لـيس بالأمر الهيّن ، فما بال صديق العمر الذي لم يعرف للـصّداقة معنىً قبله ولا بعده .. لم يجرحه فحسب ، بـل طـرده مـن مكتبه .. كلما دارت عجلة الذّكرى القريبة ، وتذكّر ما حدث يعتصر الحزن قلبه فيفيض دماً وتزداد دقاته وتسيل من عينيـه الدموع .

- " ممكن تجمع لي ٦٧+٧٣ ."

كانت أول ما سمعه من صديق عمره بعد كلّ تلك الأعوام التي فرّقتهم .. رفع رأسه بهدوء من على مكتبه المنكبّ عليه بين حساباته ، وأوراقه ورتابة عمله الحكومي البغيض .. عرف صاحب الصوت .. لم يكن ليخطئه مهما مرّت الأيام ، وتتابعت السّنون .. لم يكن هناك فرحة فقد ماتت .. لم يكن هناك تهلّل فقد وُئد .. لم تكن هناك لهفة فقد فترت .. لم يقف حتّى خلف مكتبه ، أو يمدّ يده لليد الممدودة ،كي تصافحه ، وتحتضنه بحرارة :

- " عمرهم ما يتجمّعوا أبداً .. ممكن ينطرحوا من بعض ، أو ينضربوا في بعض ."

- " أنت مش هتسلم عليّا ، واللا إيه ؟"

- " لا هسلّم عليك .. ولا عايز أعرفك .. واتفضّل من غير مطرود . لو سمحت ."

سمع نقراً خفيفاً على الباب بعده دخلت زوجته إلى الحجرة .. أخبرته أنّ "مصطفى" بالخارج ينتظره بغرفة الجلوس .. لم يصدّق نفسه .. مسح دموعه .. انطلق كالسّهم إلى حيث مكان "مصطفى" .. وقف عند عتبة الغرفة .. تلاقت الأعين .. تعانقت .. التحمت .. سال ماؤها على الوجهين ..

تعانق الجسدان .. علا صوت البكاء .. انهارا علـى الأرض ، ولم ينفصل العناق .. وقفت "مريم" لا تستطيع أن تفسّر ما يحدث أمامها .. أخذتها أمّها ، وأغلقت الباب ؛ لتدع مجالاً للعتاب بين الأحباب .

***

- ٤ -

هدأت عاصفة المشاعر المتأجّجة .. جلسا متجاورين .. دخلت "ماتلدا" بصينية عليها كوبين من الشاي ؛ ليحبسا بهما تلك الوليمة العامرة .. وضعتها أمامهما ، وانسحبت بهدوءٍ ، وأغلقت باب الغرفة خلفها .. تلفّت "مصطفى" بوجهه في جلسته :

- " الشّقة زي ما هيّا من أيام ما كنا طلبة ."

- " من فات قديمه تاه يا "مصطفى" ."

دون أن يرفع ناظريه من على أوراق جواز السّفر الإسرائيلي الذي أخذ يقلّبه بين يديه .. أعطاه ل-"مصطفى" - وهو يضحك - :

- "بتضحك ليه ؟!!"

- "بسبور إسرائيلي .. وإقامة في إسرائيل .. وجنسية إسرائيلية .. ومراتك إسرائيليّة .. وبتشتغل مع إسرائيلي .. إنت جيت مصر ليه يا "مصطفى "؟! .. عايز منها إيه "واللا عايز تعمل فيها إيه ؟!!"

- " مشكلتك يا "فوزي" ، إنت واللّي زيّك : إنكم فاكرين إن إسرائيل حطّانا في دماغها "."

- "أمال حطّانا فين يا أبن والدي ؟!!"

- "يا ابني فوق من الأوهام دي بقى ."

أشاح "فوزي" بذراعه كعادته التي لم تتغيّر فيه رغم مـــرور السّنوات عليه مبدياً استياءه من كلام "مصطفى" :

- "إنت اللّي فوق من الأوهام ، والضّلالات اللي عشّشت في دماغك .. الحدّاية عمرها ما بترمي كتاكيت ."

- "إسرائيل لمّا بتعوز حاجة بتاخدها .. ولما تحب تعـــرف حاجة بتعرفها .. من غير تجنيد ولا عملاء ."

- " ليه ؟ هيّا ربّنا .. بتقول للشيء :كن فيكون ."

- " لأه .. بس همّا ناس شغّالة صح .. عارفين همّا عايزين إيه .. عشان كده عمرهم ما بيبصّوا تحت رجلـــيهم .. دايمـــاً بيبصّوا لفوق .. وإحنا بقينا تحت .. تحت قوي ."

- " عندك حق .. أنا اللّي أعرفه : إن اللّي يـــبص لفـــوق يتعب ، واللّي يبص لتحت ينكفي على وشه .. إنما الأعمى .. ما تفرقش معاه يبص فوق يبص تحت عمره ما ح يشوف ."

- "على فكرة .. في عمليات عندنا في إســـرائيل كـــتيرة بترجّع للأعمى بصره ."

- " عندنا في إسرائيل !!!! .. إفهم بقى .. مجرد وجـــودك في الكيان اللي إنت فيه ده جريمة ."

- ليه ؟ الشمس هي الشمس ، والقمر هو القمر ، والهوا هو الهوا .

- بس الناس مش هي الناس .. والفكر مش هو الفكر في الكيان اللي أنت موحول فيه .

- " ليه ؟ الكيان ده هو اللّي حسّسني بكياني .. هو اللّي اداني الشغل ، والاستقرار والفلوس .. هو اللّي اداني كل حاجة ."

- " وخد منك إيه ؟"

- " بالعكس .. هو اللّي خلّاني أحقّق ذاتي ."

- "ذاتك المصرية ، واللا الإسرائيلية ؟!!"

- " خلّيك حيادي ، وموضوعي في كلامك ، وبعيد عن تعقيدات إحنا في غنى عنها .. أنا خدت إيه من مصر غير الذلّ، والمهانة ، وضياع حقي .. يا "فوزي" أنا في إسرائيل حسّيت إني راجل ، وحياتي ليها معنى .. لكن في "مصر" كنت مَرَةَ .. تعرف إيه شعورك لما حد يغتصبك ؟ .. اغتصبوا حقي في النجاح والتعيين وما كفاهمش ده .. اغتصبوا رجولتي .. أنا خرجت من مصر ،وما ليش حاجة فيها .. ورجعت وما حدش فيها له عندي حاجة ."

وقف "فوزي" بعد أن استجمع كلّ ذرّةٍ من شجاعةٍ لديه ، وقد أخذ قراره النّهائي :

- " يا ريت دي آخر مرة أشوفك فيها .. وانس حد كنت تعرفه اسمه "فوزي" .. وحط مكانه "شارون" ، أو "شاؤول" .. مع السلامة ."

- " إنت بتطردني من شقتك ؟"

- " طول ما أنت معاك حتة الورقة الوسخة اللّي في جيبك دي .. ما فيش بيت في مصر كلّها ح يقبلك ."

- " إنت غلطان يا صاحبي .. بكرة الأيام تثبت لك ."

- " بكرة نشوف .. مع السلامة يا اللّي كنت صاحبي ."

***

- ٥ -

خرج "مصطفى" من شقّة "فوزي" له أذنان صُمّا لا يسمع بهما شيء ، وعينان عُمّيا لا يرى من خلالهما بصيص ضياء .. سار بلا هدف ، أو مكان محدّدٍ يقصده .. ترك الأمر لساقيه تذهبان به إلى حيث شاءا .

- " أنا عملت إيه ؟!! .. بيعاملوني كده ليه ؟ ! ..أنا لا ضرّيت حد ، ولا خنت بلدي .. خلاص دلوقتي الكل بقى أستاذ في الانتماء ، وبيّدي دروس في الوطنية .. عايز افهم .. أنا آذيت مصر في إيه .. كانت فين مصر لما خسرت كل حاجة ؟ !"

سار خطوات لا تحصى .. طوى أمتاراً لا تعد .. مشى في كلّ الشوارع والميادين التي اشتاق إليها أغلق هاتفه المحمول بعد أن أخبر "لندا" أنّه يريد أن يختلي بنفسه ، وألا تقلق عليه .. انفصل عمّا جدّ عليه .. التحم بكلّ ما تاه منه .. تبدّل اللّيل إلى فجر ، ثمّ صباح .. أوقفته تلك اللوحة المكتوب عليها حارة "كوع النّسناس" .. لم يصدق نفسه أنه في ذلك المكان .. سار ودار كلّ هذه الخطوات ؛ ليعود مرةً أخرى من حيث بدأ .. دخل الزّقاق .. أراد أن يجثو على ركبتيه ، ويأخذ حفنة من ترابه ليشمها كمدمنٍ أعياه إدمان ذلك التّراب ، لكنه لم يفعل .. هل شُفِي من إدمانه ؟!

وقف متأملاً في البيوت التي لم تتغيّر ، ومندهشاً أنها لم تتهدّم .. بقيت صامدة بلا انكسار ، أو زوال حتى وإن أصابها بعض الشروخ من جراء هزّةٍ أرضيّة ، أو زلزال ، لكنها غالبت الشروخ والزلازل والأيّام والنوازل .. بقيت على ما هي عليه ضعيفةً كسيرةً في مظهرها شامخةً قويةً في جوهرها ، ولم تنهار .. تتبّع تلك الرّائحة التي يعرفها جيداً ، وذلك الوجه الذي لن ينمحي من ذاكرته مهما تعاقبت السنون عليه .. وقف أمامه ، وقد ملأت الدّموع عينيه :

- " ممكن سندوتش فول يا عمّ "سيّد" ."

- " عيني يا باشا ."

- " إنت مش فاكرني يا عمّ "سيّد" ."

نظر إليه "سيّد فولة" الذي لم تنل منه الأيام ملياً محاولاً أن ينقّي ذاكرته من الشّوائب التي علقت بها على مرّ السنين ؛ ليتذكر صاحب ذلك الوجه .. فجأة تعرّف العقل على صاحب الوجه .. نظر "سيّد فوله" إلى حيث النافذة التي كان يقف "راضي" خلفها ؛ ليأخذ منه الفول والعيش والبصل .. نزل مسرعاً من على نصبته .. تعانقا بحرارة المحبّة ، ودفء الذّكريات ، ومودّة العشرة :

- " الله يرحم والديك .. حمد الله على السلامة .. عاش من شافك ."

قالها له وهو يضع كوب الشّاي على المنضدة التي بينهما بمقهى الحاج "عيسى" بشارع "أبو الفرج" بعدما أنهيا شارع "السيد حسن" الواصل من الحكر إليه .. سأله بلهفةٍ عن أخبار النّاس بالحارة والزّقاق .. كانت الأخبار متوقعة ومستنتجة ، فأرباب الحارات والأزقّة لن يدور عليهم الزمن ؛ لينصفهم ويعلي هامتهم .

خشي عند سؤاله على المعلم "حلي" أن يكون أسير القضبان، أو عانق جيده حبل الإعدام .. علم أن الحاج "حلي" !! صار عضواً في البرلمان عن دائرة بلده في الصعيد !! بعدما ترك تجارة الدّجاج ، وافتتح مصنع للسيراميك يغطي إنتاجه مصر ، والدّول المجاورة ؛ لدقة تصنيعه لاسّيما ، وأنه يستورد المسحوق الأبيض "البودرة" الخاصّة به من الخارج .. شعاره في حملته الانتخابية كان{ أنا في البرلمان،لنُصرة الغلبان}..ترك تجارة الحشيش ؛ لأنها لم تعد تواكب العصر ، ولا تستحق عناء خطورتها .. "تجارة السّيراميك" أسهل وأربح !!!.

لم يكن عجبه مما آل إليه الحاج "حلي" (نصير الغلبان) بقدر دهشته ، وعدم تصديقه لما آلت إليه الحاجّة "سنية" (صاحبة الكرامات والخطوة والمعجزات) بعدما تولّت هي المسئولية بعد وفاة زوجها الشيخ "دهموش أبو الرموش" الذي أوصل الحاج

"حلمي" للبرلمان .. ذلك الشيخ صاحب المعجزات والكرامات لأهل الفنّ ، والصّحافة ، والسّياسة ، وصفوة المجتمع .. أكملت زوجته الحاجّة "سنية" من بعده المشوار ، فحلّت ضيفةً مستديمةً على الفضائيات ، وصارت صاحبة الفتاوى على الهواء مباشرة مهما كان السؤال .. أصبحت نجمة المجتمع الرّاقي التي يتحدث الكلّ عن أفضالها وبركاتها .. لمَ العجب .. إذا ما اجتمع لـ"سنية "ما هي عليه من جمالٍ أخّاذ ، وسحرٍ خاص لازالت عليه ، وهو ما أكده له "سيّد فوله" عندما ذهب إليها ؛ لتتوسط له لدخول ابنته المدرسة وهي دون السن ، فأدخلتها بمكالمة تلفونية ، إضافة إلى أموال الشيخ "دهموش" زوجها الغابر، هذا كله مع ما كانت عليه ، وأغلب الظنّ أنّها لازالت عليه ، ولكن بدرجة إحترافية أعلى .. فلا شكّ أنها ستكون صاحبة كرامة ، ومن أهل الخطوة .. خاصّة وأن ساقيها لا يقوى أحدٌ على إغراء جمال خطواتهما .. لاسيّما ، وأنها تركت "ورك الفرخة" ، وامتطت "الزلُمكّة"!!! .

بدّد ما عرفه من أخبارٍ عجيبة ، وغير متوقّعة بعض الغيوم التي تجمّعت على نفسه بعد لقاء "فوزي" الأوّل ، والثّاني .. ترك "سيّد فوله" ، وذهب إلى حيث كان واجباً عليه أن يذهب أوّل ما وطأت قدماه أرض الوطن .. وقف أمام قبر والديه .. قام بكلّ الطّقوس الواجب القيام بها بلا زيادةٍ ، أو نقصان ، ثمّ انصرف .

- ٦ -

وقف إلى جوار "لندا" ، وحولهما ولديهما يمرحان ، ويلهوان على تلك القطعة من كورنيش النيل أمام مبنى التليفزيون .. رفع "مصطفى" رأسه عالياً .. أراد أن يعانق السماء في تلك اللحظة .. إنها لحظة عزّة ومجد لم تمرّ به من قبل .. الدهشة التي جمّدت ملامح "لندا" أسالتها في سؤال :

- "ليش هادا المكان بالذات على طول النيل ، وعرضه اللّي موقفنا فيه ؟!!"

يستنشق ما استطاعت رئته أن تتحمّل من هواء في استعلاء بالغ ، ويزفر زفيراً له صفير بكبر وتكبّر وخيلاء مقصود :

- " ده ندر كان عليّا بوفّيه .. المكان ده كان شاهد على كلّ هزايمي وانكساراتي وفشلي .. وجه الوقت اللي يشوف "مصطفى عبد المعز" ، وهو فوق السحاب .. جه الوقت اللي يشوفني ومعايا أستيكه بمسح بيها اللّي فات كله ، واكتب ليّا تاريخ جديد ما حدّش يقدر يمسحه ."

- "والله ما بتحزن .. بكره يكون عندك كلّ ما بتريد ."

- "وبكرة ليه .. أنا بقيت من أصحاب الأملاك خلاص ."

- " صدق !! .. خبّرني ."

- " شوفي يا ستي .. المحامي اللي "شاؤول" إداني الكارت بتاعه واحنا مسافرين .. طلع مفهّمة على كلّ حاجة .. اشترى

لنا فيلّا في المعادي على النيل .. وحوالي ألفين متر في الهـــرم .. وخمسين فدان في ميت أبو الكوم الجديدة في سينا ."

-" إيش .. ميت .. شو .. هادي اللي انت لـــسّة مخبّـــرني إيّاها .. وين بتكون ؟"

- "دي يا ستّي شرق قناة السويس .. في ســـينا يعـــني .. عملها "السّادات" الله يرحمه ، وسمّاها على اسم بلده اللـــي في المنوفية "ميت أبو الكـــوم" ، وسماهـــا "ميـــت أبـــو الكـــوم الجديدة" .. كان عايز يندفن فيها بس العمر ما مهلوش .

- "عمري ما شفت الفرحة دي في عيونك حبيبي ."

- "عشان عمري ما حسيت إن فيه حاجة ملكي وبتـــاعتي إلّا النّهارده .. وطلبت منه يشتري لي البيت اللي في الزّقـــاق ، وقبر أبويا وأمي ."

- "أنا آسفة .. بس انت ممكن تتملّك في مصر بعـــد مـــا صرت إسرائيلي ؟!!"

- "أنا إسرائيلي بس أولادي مصريين يـــا حبيـــبتي .. مـــا تنسيش إنّي محامي ."

الفصل الحادي عشر

التّيه

- ١ -

هناك كثيرٌ من الأمثال المأثورة من التّراث المصري العريــق مثل :

١. .. "زي ما رحنا زي ما جينا".

٢. .. "المنحوس منحوس ، ولو علّقوا على راسه فانوس".

٣. .. " حبيت أهوّي القهر لقيته سابقني بشهر".

٤. .. "يا فرحة ما تمت ،خدها الغراب وراح".

٥. .. " يروح فين الفلّاح من شمس القدّاح ".

وكلّها تنطبق على حالة واحدة مفادهــا : " أنّ صــاحب الرّاية المنكّسة من المستحيلٍ أن ترتفع رايته تلــك ، وترفــرف خفّاقة عالية أبداً ".

جلس "مصطفى" شابكاً أصابع كفيه خلف رأسه إلى جوار النّافذة .. ذات جلسته في التابوت المعدني المحلّق به إلى ديارٍ يحيا بها ، لكنها ليست موطنه ، ولن تكون .. استــسلم للحــزن وأعلى رايته البيضاء .. لم يعد به من الجهد والقدرة ما يحتمــل به المزيد .. فكّ اشتباك أصابعه ؛ ليسد أذنيه بكفّيــه حــتى لا يسمع صدى صرخاته المدوّية داخله ، والتي انطلقت منه بــلا حسيبٍ ، أو رقيبٍ ، ولازالت تتلجّلج في أعماقه بــلا قــاعٍ تستقرُّ عليه ، أو عدم تهتدي له فتضيع فيه :

- " آه .. ألاقيك فين يابا .. ألاقيك فين .. اتسرقت مني حيّ وميت .. حتّى عضم التّربة خدوه واغتصبوه .. حتّى الموت سرقوا منه حرمته ."

لم تعرف الفرحة طريقها لـ"مصطفى" ، وتصل إليه وتستقر .. "من كان حزنه جبالاً رابضة كانت فرحته حصىً مفتّتة "،و"من كان همّه ليلاً مدلهماً كان فرحه نهاراً بلا شمس ، أو صباح".. جاء ليخطّ قدره بيده ، فعاجله القدر بما خطّه له ولم يكن قد قرأه بعد .. كان آخر سطر يقرؤه .

وقف "مصطفى" أمام قبر أمّه باكياً منتحباً على ما علمه من عدم مجاورة أبيه لها في رقدتها .. بل إنّه لم ، ولن يعرف له مرقدًا يزوره فيه .. تلاشى في تيه معروض فيه الإنسان للبيع والشّراء .. سلعة .. مجرد سلعة وعليها ثمن .. لها مشترٍ يبتاعُها، وتاجرٌ يبيعها .. إنه قانون "العرض والطّلب" .. قانون "السّوق" .. و"أخلاق السّوء".

عرف السرّ الخفي من "فاطمة" زوجة "محيي" عندما زارها في منزلها ؛ ليسدد دينه الذي في رقبته لزوجها الذي استشهد في سبيل تلك الحياة التي يحياها هو الآن ، وينعم بها .. هوى على تلك الأريكة المتواضعة ؛ عندما أعلمته "فاطمة" أنّه ليس مديناً لها ، ولا لابنتها "آية" بشيء ، وأنّ سفره مع طليقها الذي طلّقها قبل السفر ؛ لأنها رفضت فكرة أن نصير سلعاً تباع وتشترى تحت أي مسمّى ، أو مبرّر بثمن جثّة والده .

أجهش في بكائه .. خرج عن كلّ الطقوس ، وزاد عن الحدّ بمراحل .. لطم خدوده .. شقّ ثيابه .. أحسّ أن سرقته تلك لا ينفع فيها حد ، ولا عقاب ، ولا جزاء .. لا ينفع فيها إلا حزن أليم له مرارة الصّبر بعد أن طغى عليه العلقم .. لملم الباقي من جهده بجهد جهيد ؛ ليرتحل قدميه الواهنتين .

وصل إلى باب الفندق ؛ ليكمل القدر ما قدّره له ، وكان عليه حتماً مقضيّا .. تقابلا .. تصافحا .. تحدّثا .. افترقا .. كانت اللّطمة قاسية ، والألم مبرحاً .. ضاق قلبه بسجنه خلف ضلوعه ، وأراد أن يتحرّر .. ثارت الدّماء في عروقه ، وأرادت أن تكسر أغلالها الشريانيّة .. لكنّ الوقت لم يحن بعد :

- " إزّيّك يا "داليا" ؟ عاملة إيه ؟"

- " مش معقول" .. "مصطفى عبد المعز" .. إزّيّك يا درش .. ما اتغيرتش يا "مصطفى" .. لسّة زي ما انت .. هه .. أتجوّزت؟"

- " أيوة .. وانتي ؟"

- "من زمان .. وعندي "يارا" ، و"مهنّد" .. مطلّعين روحي والله .. دول معايا هنا مع باباهم ، ما إنت عارفه .. زميلنا "أحمد السلحدار" .. بس دلوقتي بقى المستشار "أحمد السلحدار" .. بقى رئيس نيابات دلوقتي .. معلش يا

"مصطفى" مضطرّة أستأذن عشان "أحمد" مستنيني مع الأولاد .. ما تيجي تسلّم عليه ."

- " لا معلش .. فرصة تانية .. إن شاء الله ."

لن يشاء الله ، ولن تكون هناك فرصة ثانية .. السّجين تحرّر، وكفّ عن النبض إيذاناً بجلائه من خلف تلك القضبان .. والثوّار ثاروا ، ومزّقوا أغلالهم الشريانية ، وقيودهم الوريديّة .

حطّ التابوت المعدني على الأرض .. أُطلق سراح الجميع جسداً وروحاً ، وأبقى على واحد جسداً بلا روح ، بعدما حلّقت الروح إلى بارئها .. لم تفلح كلُّ التحرّكات السريعة ، والمحاولات المتقنة ، والأضواء المتبادلة في الإنارة والإطفاء ، والنفير المطلق لإفساح الطريق .. قد يُفسَح الطّريق من المارّة ؛ لكنه لن يُفسِح العمر للحظةٍ واحدة تربو على ما تحدّد سلفاً .

حاول الأطبّاء معالجة الجسد ، لكنهم فشلوا ؛ لأن الملائكة عالجت الروح بنجاحٍ لا تعرف غيره .. ما خطّه القدر في سجلّ الأعمار ، وسجلّه في دفتر الأيام لا يمكن للإنسان أن يمحوه .. وكيف يمحوه ؟ وهو جارٍ عليه .. لم يبق ل-"مصطفى" شيئًا ليقرأه .. لكن بقي سطراً ليكون شاهداً على اختياره .

- ٢ -

وقفت "لندا" وسْط مترلها متماسكةً بهيئتها الأولى متّـــشحة السّواد ببنطال ضيّق عليه قميص أقلّ اتساعاً منه مفتوح الأزرار الفوقية ، وقد تركت شعرها الذّهبي مرسلاً بعـــد أن خلعـــت الإسلام مع الطّرحة التي أدّت مهمتها .. عادت لما كانت عليه ، ولم تتركه لحظة من عقيدة واعتقاد قبل مسلـــسل إســـلامها المُصطنع وحجابها المزيّف واسمها المصطنع .. لا يبـــدو عليهـــا الحزن بقدر ما يبدو عليها الصّرامة المشوبة بالتّوتّر ، والانتـــهاء مما هي فيه من ذلك الاجتماع الجنائزي .. وقف معها مجموعة من أصدقائها وأقاربها .

دخل عليها "حاخام" ومعه مـــساعده .. واســـاها بآنيّـــة الحانوتي .. أرشدته إلى الغرفة الرّاقدة بها جثّة "مـــصطفى" .. اقترب منها "مهنّد" ، و"شاؤول" ، ومعهما "مـــسيو ديفيـــد" الذي واساها بحرارة بعد أن قبّل وجنتيها وضمّها ضمّة قويّةً إلى صدره ؛ لتستمد منها الشجاعة على استكمال ما بدؤوه ، وما هي قادمة عليه .. انتحى بها جانباً ؛ ليخبرها أنه معهـــا ، وفي ظهرها سنداً وظهيراً بعد تلك الوفاة التي أتت مبكرة نوعاً عن موعدها المحدّد وفقاً لحساباتهم ، والتي لو تأخرت عـــن ذلـــك الموعد كانوا سيتدخّلون ؛ ليجعلوها تتمُّ وفقاً لتلك الحسابات المحددة سلفاً ، لكن القدر كان أسرع منهم .. أعلمها أنّه مـــن

البديهي أن ولديها " إبرام" ، و "آدم" سـيكونان محـل كـل الرعاية والاهتمام كغيرهم من تلك البذور التي أُعـدّت ، وتمّ تهيئتها لتقوم بدورها العظيم الخالد على أحسن مـا يكـون ، لتقرب النيل من الفرات ، حتّى تمام أخـذ الحـق وإرجاعـه لأصحابه .. اقترب منهما "مهنّد" ، فتركهما "ديفيد" ليحادث "شاؤول" .. مال عليها هامساً :

- " هو "حاخام" اللي هيجهّز الفقيد ؟"

- " إيه .. "موشي" مات يهودي!!! ."

- " موشي" .. مش معقول!!! ."

- " ليش بتعجّب ؟ .. مش فيه يهود بيسلموا ؟ .. وفيـه مسلمين بيتهوّدوا ؟"

- " والنّاس ح تصدق ؟ !"

- " ناس مين ؟ يا خيي . اللّي عـاش في أرض الميعـاد ، وأكل من خيرها لازم يندفن في ترابها بعد موته ، ولازم يبقـى يهودي حتّى النّخاع ."

- " يعني ..."

- " موشي" مات يهودي ، و ح يندفن في مقابر اليهـود المؤمنين بأرض الميعاد .. موشي مات بعد ما أدّى جزءاً كـبيراً من دوره اللي كان مرسوم له ."

تحرك الموكب الجنائزيّ حتى وصل إلى ساحة المقابر .. كان في انتظارهم القبر مفتوح الثّغر ليلتـــهم وجبتـــه في هـــدوء وتمهّل .. ذات الفم ، وإن اختلفت ماديته .. مائيّ ، أو ترابيّ ، أو ناريّ .. لا يهم .. المحصّلة واحدة وهي : "الالتهام" .. أُغلق الفم على وجبته الساخنة ؛ ليقيم عليها مأدبته مع ديدانها بعـــد أن اقتنصها .. وُضعت الزّهور ؛ لتجميل محلّ الموت بعـــد أن اقتنص فريسته رغم أنّه لا يمكن أن يتجمّل ، أو يُخفي تشوّهه، أو يتوارى مسخه مهما وُضعت الزّهور ، أو غيرها من أدوات التجميل .

***

– ٣ –

لم تعبأ الأرض بموت "مصطفى" ، ولم تكفّ عن الدّوران ، ولم تهتمّ الشمس بأنّها لن تسْطُع عليه ، ولن يرى أشـــعتها .. دارت الأرض بعد موته حول نفسها كثيراً بلا تعبٍ ، أو كلل، لكنها بعد أن دارت حول الشّمس خمسة عشر مرة من مـــوت "مصطفى" نادت الشمس لتريها ذلك التجمّع المهيب أمام بنايةٍ ضخمة بوسط القاهرة مكتوب فوق أعمدتها الحجرية العاليـــةً { دار القضاء العالي } .. أناس كُثر لا يوجد موضع لقـــدم .. كاميرات ومراسلون من شتّى بقاع الأرض .. الحدث جلـــل والأمر جدّ خطير .. لافتات كتب عليها :

- " رابطة أبناء المصريين المقيمين بإسرائيل .. تطالب بـــردّ الحقّ لأصحابه .."

- " نريد حقّنا في ميراث آبائنا .."

- " أعطونا أراضينا التي لديكم .."

- " لا يجب أن تقف الجنسية حائلاً أمام تطبيـــق شـــرع الله .."

التقطت إحدى تلك الكاميرات ، والتابعة لمحطّة "ســـي إن إن" صورة "كوهين شاؤول" المحامي ، لتنقلها عـــبر الأقمـــار الصناعية إلى كافّة أنحاء المعمورة ، وما عساه يقولـــه في ذلـــك الموقف ، بعد أن تولّى الأمر بعد موت أبيه ، وسار على النّهج

الذي أسس له مع غيره في ظلامٍ بهيمٍ ؛ ليقف أمامـه المراسـل بفخرٍ وافتخار ، وعزةٍ وانبهار :

- " تعتقد أنكم سوف تكسبون هذه القضية .؟"

- " بالطّبع .. لا شكّ عندي في ذلك .. أنا كعضو هيئـة الدفاع لرابطة المصريين ، وأبنائهم في إسـرائيل .. واثـق أنّ أملاكهم سوف تعود إليهم ، بلا شك ."

- " هل تعتقد أنّ القضاء المصريَّ سوف ينـصف الرعايـا الإسرائيليين ، ويعطيهم إرثهم في الأراضي المصرية ملكاً لهم ."

- " لا أحبّ أن أسبق الأحداث .. نحن مـع الـشرعية .. وهؤلاء أصحاب حقوق .. فلننتظر ونرى ."

- " ما هي الخطوة التالية ؟"

- " نحن بدأنا بالقضاء المحلّيّ .. لكن هناك القضاء الدولّيّ ، ومحكمة العدل الدوليّة ، والرّأي العام العالمي .. قضيّتنا عادلة ؛ لذلك أنا واثق من الانتصار ."

- " هل تعتقد تدخّل الولايات المتحدة الأمريكيـة ، إن لم تردّ الحكومة المصرية الأراضي والممتلكات لكم ؟"

- " لا أستطيع التحدّث في هذا الموضوع حالياً .. ولكـن بما أنّ أمريكا ناصرة المظلومين ، والمقهورين في العالم كلّه !!!.. فهذا موقف غير مستغرب عليها أن تتّخذه ."

استأذن منه بعد هذا العرض الإعلاميّ مع تلك المحطّة ، وغيرها من المحطّات الفضائية ؛ ليدخل قاعة المحكمة الزّاخرة بالبشر .. انقسمت القاعة إلى نصفين :

● في الجانب الأيمن منها .. جلست "لندا" بجمالها المكابر لسنين عمرها التي مرّت عليها ، وقد أطلقت شعرها مسترسلاً على عاتقيها متّشحة بالسّواد الضيّق ، والقصير الذي أبدى مفاتنها رغم سنّها .. كأنّها تريد تعويض كل لحظة حجبت فيها ذلك اللّحم برداء لا تستحقّه .. إلى جوارها ولديها "إبرام" و "آدم" جزءاً من أطّراف الدّعوى المجمّعة .. انضمّ إليهم "كوهين" ؛ ليجلس إلى جوارها .. نظر إليها مبتسماً ومطمئناً .. جلس خلفهم بعض رعايا إسرائيلّيين ، وبعض الدّول الأجنبية .. ومصريين ادّعوا الثّقافة ، وهي منهم براء .. تشدّقوا بكلمات الوطنيّة ، وهم لا يعرفونها ولا تعرفهم .. نادوا بالتطبيع ، وهو ضد الفطرة .. الفطرة جعلت تلاقي الأشياء يحدث في انسجامٍ طبيعيّ ، وحتّى تنافرها يكون له تناسُقٌ ، وانسيابيّة مقدّرةٌ .. حتى العلم قالها :

- " كل فعل له رد فعل مضاد له في الاتجاه ، ومساوٍ له في المقدار ."

أما ما ينادون به ،فهو أمر مقحم على سُنّة الفطرة .. ولكن من يسمع لا يعي ، ومن يرى لا يبصر ، ومن يعقل لا يفهم .

● على الجانب الأيسر من القاعة ...... زخر الصفّ الأوّل، والثاني منه بمجلس نقابة المحامين الذين توصّلوا إلى اتفاق أنّهم سيمثلون جموع المصريين في تلك القضيّة .. شعباً وحكومةً .. جلس خلفهم ووراء ظهورهم عددٌ من رجال القوّات المسلّحة ، والشّرطة ، وخلفهم رجال الدّين الإسلاميّ ، والمسيحيّ ، وخلفهم مواطنون من شتّى بقاع "جمهورية مصر العربيّة" بملابسهم المصرية من جلابيب ، وأفورلات وملابس مدنية .. عمال وفلاحين وموظفين .

علت الهمهمات ، وأصبحت الأصوات متداخلةً عاليةً ومزعجة .. تعلو وتنخفض .. أموج من الأصوات البشريّة التي لا يُعلم منها العربي من العِبري من غيره من اللُّغات .. دخل الحاجب إلى قاعة المحكمة .. صمت الجميع عن الهمهمات .. ساد صمتٌ مطبقٌ .. شق جداره صوتُ الحاجب العالي :

- " محكمة ."

صدر للمؤلف :

١- نهر من الحنان " ديوان شعر " -٢٠٠٨- دار المختار .

٢- الأتوبيس " مجموعة قصصية " – ٢٠٠٩ – الهيئة المصرية العامة للكتاب

للتواصل مع المؤلف:

Ahmedkhattab٧٣@yahoo.com

Ahmedkhattab٧٣@hotmail.com